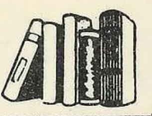


المكتبة الصغيرة



٩

من عبد الحميد الكاتب إلى الكتّاب والموظفين

عبد العزيز الرفاعي

المكتبة الصغيرة

٩

من عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب والموظفين

عبد العزيز الرفاعي

الطبعة الأولى

جمادي الأولى ١٣٩٣ هـ

يونيـــه ١٩٧٣ م

الطابعة الثانية

ا[illegible]ـــرم ١٣٩٣ هـ

ينـــاير ١٩٧٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله الاكرم ، الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم

والحمدلله الذي خلق الانسان علمه البيان . والصلاة والسلام على رسوله الامي الامين القائل : « ان من البيان لسحرا » ، الذي استعان بالكتابة والكتّاب في قيد الوحي ، ونشر الرسالة .

« اكرموا الكتاب فان
الله تعـــــالى اجـرى
الارزاق على ايديهم »

عبد الحميد الكاتب

المقدمة

بقلم فضيلة الشيخ ناصر بن حمد الراشد

الرئيس العام لتعليم البنات

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فقد رغب الي الأستاذ الكريم عبد العزيز الرفاعي أن أضع مقدمة للرسالة التاسعة من ((المكتبة الصغيرة)) التي خصصها لنشر رسالة الكاتب المبدع ((عبد الحميد الكاتب)) إلى الكتاب ، وحينما تصفحتها اذا بالناشر الكريم لم يدع مجالاً لغيره ، فقد عني حفظه الله بهذه الرسالة القيمة ، من حيث تناسق نصها ، ثم واصل جهده بإعداده ترجمة وافية لصاحب هذه الرسالة يحتاج إليها ويستفيد منها كل معني بذلك ، ثم أعقب هذا الجهد بشرح غريب ألفاظها ، وقام بتحليل نصوصها ، ثم نسق هذه النصوص القيمة وبوّبها حتى بلغت بنودها ((٧٥)) بنداً .

أما الرسالة ، فإنها تحفة أدبية لغوية عزّ وجود مثلها وهي مما كتبه الرعيل الأول ، الذي نتلهف الى الإطلاع على تراثه العزيز والتثقف بثقافته الأصيلة ، فان هذه الرسالة من أقدم ما كتب مما وصل إلينا ، وسيرى فيها القارىء ملامح عن أسلوب الكتابة في ذلك العصر ، ونوع العلاقة مابين

الرئيس ، والمرؤوس من المشتغلين بالدولة ، الذين نعبِّر عنهم الآن بالموظفين ، وتوضح هذه الرسالة أن الموظف في ذلك العهد من أطول الناس باعاً في الفضل ، وغزارة العلم ، والتحلي بكريم السجايا والأخلاق ، ورسالة عبد الحميد جمّة الفوائد ، فهي صادرة عن شخص تسنّم من المجد ذراه في علمه الواسع وأدبه الجم ومركزه المرموق ، اذ مركزه يكاد يكون المركز الثاني بعد رئيس الدولة في أكبر دولة في العصور الاسلامية حيث تمتد من الأندلس غرباً الى الهند شرقاً ، فجاءت رسالته كما قيل ((كلام الملوك ملوك الكلام)) جاءت أصيلة في لغتها بارعة في أسلوبها ، مليئة بالمعاني الجليلة ، والحكم البليغة ، ونتائج تجارب طويلة ، وبالجملة فاني لم أطلع على شيء كتب في مثل موضوعها ، فهي جديرة بالاهتمام ، وتكرار المطالعة .

ولا شك في أن القارىء سيجد تفاوتاً ما بين العاملين في الدولة في عهد عبد الحميد وبين العاملين في عصرنا ، فسمو الثقافة وتفنن المعرفة والتخلق بالأخلاق الكريمة وحسن المعاملة .... إلخ كل ذلك يتخلف فيه العاملون في عصرنا عن أسلافهم الأكارم .

ولعل الله أن ينفع بنشر هذه الرسالة ؛ أجزل الله مثوبة الناشر الذي قام بنشرها بنية حسنة ، والله الموفق ،،

١٣٩٢/١٢/٢١ هـ

تمهيد

فكرة اخراج هذه الرسالة، تعود الى صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ « ناصر بن حمد الراشد » الرئيس العام لتعليم البنات .. فقد اقترح عليّ فضيلته اخراجها ضمن سلسلة « المكتبة الصغيرة » ، لما ضمنته من ارشادات قيّمة بالنسبة للموظفين ، عدا كونها قطعة بيانية جميلة ، لامام من أئمة البلاغة ..

ولقد ارتحتُ للفكرة .. ثم أخذت أدرسها متمهلا ..

وكان أكثر ما يدعوني الى الاناة ، حذري من أن تكون هذه الرسالة قد نشرت منفردة من قبل .. فيتكرر الجهد ..

كنت أعلم حقا ، انها رسالة مشهورة ، تناقلتها كتب كثيرة من كتب الادب والتاريخ ، وعنيت بابرازها ، أو ايراد نصوص منها ..

ولكن هل انفردتْ بالنشر في كتاب خاص .. ؟

ظللت أستقريء ..

ثم علمت انها نشرت على انفراد في تونس سنة ١٣١٨ هجرية ..

وهنا ترددت ..

فما دامت قد نشرت من قبل ، ما فائدة نشرها من جديد اليوم ؟

ولم أكتم فضيلة الشيخ ناصر ترددي ..

ولكنه ظل يفتح أمامي أبواب العمل .. قائلا .
ان الرسالة التي طبعت منذ ما يزيد عن سبعين عاما ، قد أصبحت مجهولة .. ولا سبيل للحصول عليها ..

وكان هذا حقا ..

ومع ذلك .. فقد حرصت على أن أقف على نسخة تونس.. لأرى كيف هي ؟ أهي مصححةمشروحة مهمّشة ؟

وأرسلت في طلب الطبعة التونسية مستعينا بعد الله بالصديق العزيز الأستاذ صالح حداوي المسئول عن المكتب الثقافي السعودي في تونس . فسرعان ما أرسل اليّ صورتها الفتوغرافية .. فاذا هي رسالة صغيرة جدا في حوالي عشر صفحات .. ليس بها الا نصّ رسالة عبد الحميد وحدها ، دونما أي شرح أو توضيح ..

في صفحة الغلاف النص الآتي :

« الرسايل والكتابة

« هذه رسالة في التعريف بوظيفة الكتاب لأبي

غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني
عامر بن لؤي بن غالب الكاتب البليغ
المشهور رئيس ديوان الانشاء •
بدولة مروان بن محمد بن
مروان بن الحكم
آخر ملوك بني
أميــة •

« وتوفي عبد الحميد مقتولا مع مخدومه المذكور في
شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٣٢ رحم الله الجميع
طبع بالمطبعة الرسمية التونسية سنة ١٣١٨ »

وفي مستهل الصفحة الثانية ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

« الحمد لله • هــذه رسالة جامعة في ضبط وظيفــة
الكتاب ، والتعريف بصناعة الكتابة حررت بقلم عبدالحميد
الكاتب المشهور الذي يضرب به المثل في البلاغة ، ونقلت
هنا من مقدمة ولي الدين عبدالرحمان بن خلدون رحمهما
الله ، وهاك نصها : »

ثم يورد الناشر النص • ويقول في نهايته :

« انتهى بحروفه والحمدلله أولا وآخرا • تم طبعها بالمطبعة الرسمية التونسية في الرابع والعشرين من رجب الفرد سنة ألف وثلاثمائة وثمانية عشر للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية • »

وليس في الرسالة أية اشارة الى اسم ناشر الرسالة ، ولا الدوافع الى نشرها ••

ومن هنا •• رأيت أن أنشر الرسالة بما وسعني من تحقيق ، وشرح لغريبها ، وأن أترجم لعبد الحميد الكاتب ترجمة مستوعبة ، فقد رأيت بعد استقراء المراجع ، ان هذا الرجل على شهرته الواسعة ، ومكانته الرفيعة ، لم ينل في كتب الادب والتراجم حقّه من التعريف ولا أدل على ذلك من أن ياقوت الحموي لم يترجم له في معجم الادباء ، ، مع أنه من الادباء في المقدمة ••

فظلت أبحث ، وأجمع تنف أخباره من هنا وهناك ، وأتحرى الحقائق ، ماوسعني الى ذلك سبيل ، فاذا أنا أمام عمل أوسع من مجرد تقديم الرسالة وحدها وهو ، الترجمة لعبد الحميد باستيعاب ••

ولدى تأمل النص لايراده ، وجدته يختلف في بعض عباراته من مرجع لآخر ، فرأيت أن أجعل اعتمادي ، في

الدرجة الاولى ، على أقدم المراجـع ، لذلك اخترت نص الجهشياري في الوزراء والكتاب ، فالجهشياري أقـرب المراجع التي توفرت لدي ، الى عهد عبدالحميد .. فقـد توفي سنة ٣٣١ هـ أي بحـوالي مائتي سنة بعد مقتـل عبد الحميد ..

أما النسخة التونسية المطبوعة ، فقـد اعتمدت نص مقدمة ابن خلدون كما رأيت ..

على أنني استفدت من النصوص الاخرى في تعديل بعض العبارات ، وقد أميل أحيانا الى أخذ عبارة ما من هنا أو هناك ، اختيارا لما أعتقده أوفى للعبارة ، أو أقرب الى أصلها ، أو أدنى الى طبيعة السياق .

على أن الرسالة ، في مختلف المراجع ، لم تُشرح شرحا وافيـا ..

وفي نظري ، ان أكثر من اهتمَّ بعبدالحميد الكاتب ، من المحدثين ، وعنى بايـراد نصوص وافية من رسـائله ، وأعطاه جلَّ حقـه من الترجمة ، هو الأستاذ « محمد كرد علي » رحمه الله ..

ومع ذلك فانه لـم يشرح من غـريب رسـالته الى الكتاب ، في كتابه « أمراء البيان » سوى ثلاث كلمات فقط :

هي (السوقة) وفسرها « خلاف المَلِك » و (شدا من العلم والأدب) ، وفسرها : « أخذ طرفا منهما ، و (لاحيته) قال : « لاحيته ملاحاةِ ولحاه اذا نازعته » .

أما أحمد زكي صفوت ، فقد تتبع في كتابه « جمهرة رسائل العرب » عند ايراده نص الرسالة ، الكثير من غريبها بالشرح .. ومع ذلك ظلّ هناك غريب آخر بلا ايضاح .. ولكنني استفدت من شرحه أكثر من غيره ..

وكان عليّ لكي أقرِّب ألفاظ هذه الرسالة ومعانيها الى القراء اليوم ، أن أقوم بأكثر من مجهود في تتبع اللفظ الغريب ، وحلّ المعنى المركب .. ثم تذليل النص بتحليله ، لكي يكون أدنى الى تعبيرات العصر ومصطلحاته .

وهكذا فقد اتبعت خطة العمل الآتية :

التمهيد لهذا العمل ..

الترجمة لعبدالحميد الكاتب ..

تقديم نص رسالته مشروحا ..

تحليل النص ، ومقابلته بلغة العصر واصطلاحاته .

صياغة مضامين الرسالة في مواد ..

ثم أخذت أنفذ هذه الخطة .

وقد وجدتني كلما أمعنت في اعداد هذا العمل ،

أصبحت أكثر حماسة له .. ذلك أنني موظف من فئة هؤلاء الكتّاب الذين عناهم عبد الحميد في رسالته .. وبحكم عملي أعرف بعض آفات الموظفين .. وأعرف تماما ما يلاقيه بعض المراجعين من عنت بعضهم .. حتى لقد غاب عن بعض هؤلاء الموظفين ، أنهم انما يأكلون عيشهم لاجل هذا المُراجِع ، وانهم في حقيقة أمرهم خَدَمٌ له وضعوا في مراكزهم لخدمة الشعب ! .. تماما كما قال عبدالحميد في رسالته ..

وهناك الروتين .. والمماطلة .. والاهمال .. والعنجهية .. وأشياء أخرى كثيرة ، منها الصغير ومنها الكبير ..

اذاً .. فان فريقا كبيرا من الموظفين في حاجة الى توعية .. وان العمل على نشر هذه الرسالة ليحقق شيئا من تلك التوعية ..

لا أزعم أنها تحقق التوعية كلها .. وانما هي تحقق منها جانبا فحسب .. أما الجوانب الاخرى .. فذلك يحتاج الى أن تتضافر عليه الجهود ، وتوضع من أجله الخطط .. والعيون !

لم تكن ـ اذاً ـ الناحية البيانية التي تتجلى في

الرسالة هي الهدف من نشرها •• ولكن هذه الناحية جاءت كسبا آخر ، يضاف الى الهدف الاساسي ، وهـو نشر التوعية الوظيفية •• تماما كما تقدم الدواء في غلاف من السكر السائغ •• المسوّغ ••

بمعنى آخر ، فان هذه الرسالة ، كما أنها تستهدف الكتاب والموظفين ، فانهـا أيضا ، تحفة أدبية تستهوي المثقفين وشداة الادب •• وليس ثمة شك أن عددا كبيرا من الموظفين هم من المثقفين وشداة الادب !

كما أن المعنيين بأدب التراجم ، سيجدون ان شاء الله في ترجمة عبدالحميد ، ما قد يرضي شوقهم الى ترجمة أقرب ما تكون الى الوفاء ••

واني لأحمد الله تعالى أولا وأخيرا ، ومنه أستمد دائما العون والتوفيق •

كما اني أشكر كل من أعان على هذا العمل ، ومن كان سببه الاول ، فجزى الله الجميع خيرا •

عبد العزيز الرفاعي

الرياض ٩-١٢-١٣٩٢ هـ

الباب الأول

عبد الحميد الكاتب

من هو عبد الحميد الكاتب . ؟

علم من أعلام البلاغة العربية ، بل هو منها في الذروة .. لا يكاد يدانيه في ميدانها أحد من قدامى بلغاء العرب .. حتى لقد قيل عنه ذلك القول المشهور « فتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .. » ..

وهو أبوغالب عبدالحميد بن يحيى بن سعد العامري ، وتمضي بعض المصادر بنسبه فتصل به الى قريش ، فتقول : عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك ابن حجر ، بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب ..

على أن المرجح أنه مولى العلاء بن وهب العامري ، فالعلاء اذن هو الذي يتصل نسبه بعامر بن لؤي بن غالب ، ومن هنا انتسب الى بني عامر فقيل عنه العامري .

والرواية التي تجعله مولى ترده الى أصل فارسي ، وتجعل جدّه من سبي القادسية ، وفي هـذه الحالة يكون أحد أجداده هو الذي انضم ولاؤه الى أحد بني عامر بن لؤي .. وما دام عبـد الحميد قد عرف باجادته للغـة الفارسية ، فان احتمال انتمائه الى أسـرة فارسية هـو الاحتمال المرجح .

ويكفي أن نقف في نسبه حيث تقف معظم المصادر فنقول : عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري .

ويلقبه الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في البيان والتبيين، بعبد الحميد الاكبر ، ويتابعه في ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد (ت ٣٤٠ هـ) ، ونعرف من نصوص الجاحظ أن هناك عبدالحميد الأصغر ، وهذا كان كاتبا لسليمان بن عبدالملك ، ولكن بروكلمان في تاريخ الادب العربي يجعل عبدالحميد الكاتب هو عبدالحميد الأصغر ، دونما تعليل ، ونفهم من كل ذلك ، أن اللقب انما أطلق تمييزا ، لا تفخيما ، وان كان صاحبنا يستحق التفخيم حقا ! .

نشأته

ولا يعرف تاريخ مولد شيخ الكتاب ، ولكن اذا صحّ أنه كتب لعبدالملك بن مروان ، الذي ولي الخلافة سنة ٦٥ هـ ، وتوفي سنة ٧٥ هـ وافترضنا أنه كتب له في أخريات أيامه (أي أيام عبدالملك) فان عبد الحميد يكون حين مقتله سنة ١٣٢ هـ قد نيف على السبعين[١] ،

(١) يقول الدكتور « عمر فروخ » في كتابه « تاريخ الأدب العربي » « لعل مولد عبد الحميد بن يحيى كان في سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) في مدينة الانبار على نهر الفرات ثم انتقل به أهله الى الرقة » ص ٧٢٣ .

ولكنني أستبعد هذا لان عبدالحميد انما تخرّج في الكتابة على يد « سالم بن عبدالله » مولى هشام بن عبدالملك ، وكاتبه ، وكان سالم ختنه ـ زوج أخته ـ وهو الـذي قرّبه الى هشـام ، حتـى كتب له .. وهشام انمـا تولّى الخلافة سنة ١٠٥ هـ وتوفى سنة ١٢٥ هـ .. فاذا افترضنا أنه كتب لهشام بعد أن تجـاوز العشرين ، وانـه التحق بالكتابة عنده منذ أول عهد خلافته ، فانه يكون قد تُوفى بعد أن جاوز الخمسين ، وكما لا نعرف تاريخ مولده على نحو محدد ، فانا لا نعرف أيضا مكان مولده .

ولكنّ ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) يذكر انه كان من أهـل الأنبار[1] ، وسكن الرقة .. ويـدل نص أورده الجهشياري في « الوزراء والكتاب » من نماذج نثره ، انه كتب عند هزيمة مروان بن محمد من فلسطين في آخر حرب كانت له ، وهو يرافقه ـ الى أهله وأقاربه الذين كانـوا ينزلون بالقرب من الرقـة ، بموضع يعـرف بالحمراء ، يعزّيهم في نفسه .

---

(١) يذكر « ياقوت » في معجم البلدان اكثر من موضع يعرف بالانبار ، منها مدينة قرب بلخ ، ومنها مدينة غربي بغداد ، على بعد أربعين ميلا منها ، جدّد عمرانها أبو العباس السفاح ، وهذه أقرب الى المناطق التي ترددت أسماؤها في تاريخ حياة عبد الحميد الكاتب .

ويعني هذا أنه من أهل الرقة ، أو انه أقام بها وقتا يصح معه أن يعتبر من أهلها، ويؤيد هذا ان العلاء بن وهب[1] ، ـ الذي إليه ينتمي جدعبدالحميد بالولاء ـ كان قد استعمله عثمان رضي الله عنه على الجزيرة سنة ٣٢ هـ فأقام في الرقة ..

والرقة في شرقي الفرات ، واذا اعتبرت الرقة من الشام (وهي الآن من سوريا) ، فان عبدالحميد الكاتب يعتبر من أهل الشام ، وهو كذلك عند كثير من مترجمي حياتـه ..

أما اذا اعتبرنا نشأته في الانبار ، فهو اذن عراقي ، وكذلك الحال اذا اعتبرنا ان الرقة كانت عراقية ، ويؤيد هذا أن عبدالحميد الكاتب كان يعمل مدرسا في الكوفة ، وينتقل بمهمته هذه بين المدن العراقية في أغلب الظن ، بيد أن نسبته الى الشام تظل هي الارجح ، كما أسلفت .

على أنْ هناك من جعل أصله من قيسارية ثم سكن الشام ، كما قال ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤هـ) . وقيسارية

---

(١) العلاء بن وهب بن عبد بن وهبان العامري القرشي ، أسلم يوم الفتح ، وشهد القادسية وتوفي نحو سنة ٣٥ هـ .

مدينة بفلسطين[1] ؛ فهو أيضا شامي بهذا الاعتبار .

أما ما ذهب اليه صاحب « ايضاح المكنون » الذي جعله بغداديا .. اذ يقول في التعريف به : « عبدالحميد .. الكاتب البغدادي المشهور » فلا أدري من أين أتى بذلك ، ومن المعروف أن عبدالحميد توفى قبل أن تؤسس مدينة بغداد ، وصاحب ايضاح المكنون متأخر جداً على أي حال ، فقد توفي اسماعيل باشا البابانى (وهذا اسمه) سنة ١٣٣٩ هـ على أنه قد يقصد من نسبته الى بغداد ، أن يجعله عراقيا .

---

(١) وقيسارية أيضا مدينة كبيرة بتركيا (بديار الروم سابقاً) ، فهناك احتمال أن يكون عبد الحميد منها يدل على ذلك عبارة ثم سكن الشام الواردة في قول ابن كثير ، لان قيسارية فلسطين تعتبر على ساحل بحر الشام ، ولكني أستبعد هذا الاحتمال ، وأرى ان عبد الحميد انما نشأ في الجزيرة وتنقل بين الشام والعراق .

وليس لدينا تفاصيل كافية عن نشأة عبدالحميد الكاتب ، تحدّثنا عما تلقاه من علوم ، الا أن هذه الدربة التي اكتسبها في مجال التعليم ، حينما كان معلماً ، تدلّ على أنه كان على حظّ وافر من التعليم ، وانه أتقن آداته ، يظهر ذلك في استاذيته التي تجلت فيما بعد .. حينما أصبح علَما ذائع الصيت .. بل مفخرة لا تكاد تدانيها في « الكتابة » مفخرة أخرى .. حتى لكان خصوم الامويين يحسبون ألف حساب لكلمته .. وحتى ليُروى ، أن أبا مسلم الخراساني ، حينما تلقى رسالة من مروان بن محمد بقلم عبدالحميد ، خشي ان هو قرأها أن تؤثّر فيه فأحرقها قبل أن يقرأها .. وكتب على جذاذة منها الى مروان :

محا السيف اسطار البلاغة وانتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانب
فان تقدموا نُعملْ سيوفا شحيذة
يهون عليها العتب من كل عاتب

ولقد كان أبو جعفر المنصور كثيرا ما يقول ، بعد افضاء الامر الى بني العباس : غلبنا بنو مروان بثلاثة: بالحجاج ، وبعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وبالمؤذن البعلبكي[1] .

وكما مرّ بنا ، فان استاذ عبدالحميد في الكتابة كان زوج أخته ، سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك .

وجدير بالذكر هنا ، ان الجهشياري[2] ، في كتابه « الوزراء والكتاب » لم يذكر اسم عبدالحميد ضمن كتّاب خلفاء بني أمية ما عدا مروان بن محمد .. فاذا اعتمدنا على ذلك، فان عبدالحميد لم يكن من مشهوري الكتاب قبل عهد مروان بن محمد ، وهذا لا يمنع أن يكون قد كتب قبل مروان لغيره من الخلفاء الامويين .

وقد حدثنا الاستاذ « محمد كرد علي » في كتابه « أمراء البيان » ، ان عبدالحميد كتب (قليلا) عن هشام ابن عبد الملك ، كما عرف من رسالة كتبها عن هشام الى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن ، وقد كان هذا على اليمن منذ سنة ١٠٧ .. ويستنتج الاستاذ محمد كرد علي

(١) كان مشهورا بحسن الصوت ، وجمال الأذان .

(٢) محمد بن عبدوس الجهشياري توفي سنة ٣٣١ هـ .

رحمه الله من ذلك أن ديوان هشام كان المدرسة الاولى التي تخرج بأساتذتها عبدالحميد في علوم الانشاء[1] .

وهذا يُرجّح عندي ، ان عبدالحميد لم يكتب لعبد الملك بن مروان ، والا لهيأه ذلك لان يكون في عهد هشام اكثر شهرة ، فان شعلة النبوغ غالبا لا تخفى .. أقول : غالبا وأحسب أن الذين ذكروا اسم عبدالملك انما كانـوا يقصدون يزيد بن عبد الملك ، فكان هناك وَهْم أو حذف ذهب بصدر الاسم ، فقد ذكر اسم يزيد بن عبد الملك بين من كتب لهم عبدالحميد ..

وفي العراق اتّخذ تعليم الصبيان مهنـة له .. ينتقل بهـا في البلدان .. وهي مهنـة تصقل العـلم ، وتثبّته ، وتدفع صاحبها ــ اذا كان ذا همة ــ الى طلب المزيد مـن المعرفة .. ولعل هذا الطلب كان حافزه لأن ينتقل من بلد الى آخر . ولقد كان المستوى الرفيع الذي وصل اليـه عبدالحميد في أدب الانشاء ، خير دليل على الشأو الذي بلغه في طلب العلم ، ونستشف كثرة اطّلاعه وحفظه وسعة ثقافته من قدرته على الاستشهاد ، وحل معـاني الشعر ، وطاقته العجيبة عـلى الاستطراد والافاضـة ، واستعمال

---

(١) أمراء البيان ص ٣٢ طبع دار الايام .

الالفاظ ، وتنويعها وتلوين العبارة . ولقد أعرب عن ذلك ابن خلكان حينما قال : « كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والادب اماما »[1] .

واذا ذهبنا تتتبع روافد ثقافة عبدالحميد بن يحيى ، نجد أن رسائله ، تنمّ عن تضلعه في الثقافة العربية ، فقد أتقن علوم اللغة وأجادها ، وأحاط احاطة واسعة بالمفردات العربية واستعمالاتها المختلفة .. ولا أدلّ على ذلك ، من وصفه لسائس الفَرَس ، واستعراضه لاحوالها ، في لغة شديدة الارتباط بلغة الاقحاح من فصحاء العرب ..[2]

ويدل على سعة اطلاعه على اللغة العربية وألفاظها ، قدرته على التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من عبارة ، يغاير بين ألفاظها .

ولا شك أن ثقافة عبدالحميد اعتمدت على القرآن الكريم منذ الاساس ، فقد كان معلم صبيان ، وتعليم الصبيان في البلاد الاسلامية ، انما يعتمد على القرآن

---

(١) ص ٣٩٤ ج ٢ .
(٢) راجع ذلك في نص الرسالة .

الكريم في الدرجة الاولى ..

وقد ظهر تأثره بالقرآن الكريم في أسلوبه .. وفي استشهاده بالآيات .

قال الاستاذ خليل مردم بك رحمه الله : « وللقرآن والثقافة الاسلامية أثر ظاهر في رسائل عبد الحميد ، فانه يستشهد بالآيات ، ويستعين بمعانيها وألفاظها ، كقوله في الضحاك الخارجي : —

« يدعو الى المعصية والفرقة ، والمروق من دين الله الى الفتنة ، بغير هدى من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت له يداه ، وما الله بظلام للعبيد ، وساء ما سوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء ، والله من ورائه بالمرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » وكقوله في فتنة بعض العمال : « ... الى نزل من حميم ، وتصلية جحيم .. وكذلك يفعل بالظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون . »[1]

وفي مجال ثقافته الاسلامية ، نجد شواهد كثيرة ، يحدثنا عنها أيضا الاستاذ خليل مردم رحمه الله : —

« أما الروح الاسلامية ، فانها أقوى عنصر في أدبه ، فحمد الله ، والصلاة على نبيه ، بصور شتى والأخذ بأدب

---

(١) الجزآن ١١و١٢ من مجلة المجمع العلمي العربي ص ٣٩٨ .

السنة ، والوقوف عند حدود الدين ، والتوكل على الله ، وتفويض الأمر اليه والائتمار بأوامر الشريعة ، والاكثار من استعمال المصطلحات الاسلامية كالربوبية ، والوحدانية ، والفردانية ، واللاهوتية ، والرسالة ، والنبوة والخلافة والايمان ، والكفر والجهاد ، أكثر من أن تحصى في رسائله ، كقوله : « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام بنفسه ، وارتضاه دينا لملائكته وأهل طاعته من عباده ، وجعله رحمة وكرامة ، وتجارة وسعادة ، لمن هدى من خلقه ، وأكرمهم وفضّلهم ، وجعلهم من أوليائه المقربين وحزبه الغالبين .. الخ »[1] .

وفي البحث عن روافد ثقافة عبدالحميد ، نجد أيضا أنه كان معجبا كل الاعجاب ببلاغة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقد سُئل ما الذي خرّجك في البلاغة ؟ فقال : حفظ كلام الأصلع. يعني عليا .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن ذلك ، فيقول :

« أراد عبد الحميد أن يصف السلاح فأخذ من الشعر، وصف الدرع، والسيف، والرمح، والقوس ، على نحو ما كان يصفها الشعراء ، فنثر في رسالته « يقصد رسالة الصيد » كثيرا من الاوصاف التي ذكرها أوس بن حجر في

(١) المرجع السابق ص ٣٩٨ .

قصيدته هذه :

اني امرؤ أعددت للحــرب بعـــــدما

رأيت لها نابا من الشـــــر أعصلا »

ثم أورد القصيدة ..[1] » . اهـ

واذا بحثنا عن روافــد أخــرى ، لثقافة عبدالحميد الكاتب ، في غير اللغة العربية ، نجد أنه قد نشأ في أسرة ذات جذور فارسية ، وانه قد أتقن لغة الفرس ، وقرأ فيها ، واطلع على آدابها ، وتأثر بهذه الآداب ..

يحدثنا بذلك أبو هلال العسكري في كل من كتابيــه « الصناعتين » و « ديوان المعاني » ..

فيقول في « الصناعتين » ص ٦٩ في الفصل الثاني :

« .. ومن عرف ترتيب المعاني ، واستعمال الالفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ، ثم انتقل الى لغة أخرى ، تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الاولى ، ألا ترى أن : « عبدالحميد الكاتب » استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعـــــده من اللسان الفارسي ، فحوّلها الى اللسان العربي » ..

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٦٤ .

وجاء في كتاب « ديوان المعاني » في باب « جمل فى بلاغات العجم » ص ٨٩ ج ٢ قوله :

« .. العجم والعرب في البلاغة سواء ، فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ، ثم انتقل الى لغة أخرى ، أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الاولى ، وكان عبد الحميد الكاتب ،استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي » .

وكما نرى ، فان أبا هلال العسكري ، دلّنا على أن عبد الحميد كان يتقن الفارسية ، ولم يكتف بأن يذكر لنا تأثر عبد الحميد بهذه اللغة ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، حينما قال انه ترسم نهجها ، واحتذى طرائقها ..

وأبو هلال فارسي الاصل ، فهو قد يتحدث في ذلك، عن علم .. ولكننا نظل في شك من الأمر ، تجاه هذا القول الذي أرسله ارسالا ، ولم يُقم عليه دليلا ، وكان في امكانه أن يفعل ، لصلته بالثقافة الفارسية ..

وللمؤلفين المعاصرين أقوال مختلفة في أمر نقل عبد الحميد طريقة الرسائل الفارسية الى اللغة العربية ، ولا يسعني هنا التعرض لذلك بتفصيل ، ولمن شاء الرجوع الى

« النثر الفني » للدكتور زكي مبارك[1] ، و « تاريخ الادب العربي » للدكتور عمر فروخ[2] ، و « تاريخ الادب العربي » لشوقي ضيف ، وتاريخ الادب العربي « لبروكلمان » .

واذا كنا لا نماري في معرفة عبدالحميد للغة الفارسية، وتأثره بها على نحو ما .. فاننا لايسعنا أن نسلم مع الدكتور طه حسين بمعرفته للغة اليونانية ، لمجرد الاستنتاج البعيد ، الذي لا يستند على دليل قوي ..

فلا يكفي أن نجد في اسلوب عبدالحميد استمالا مسرفا للحال ، لكي نقول أن ذلك من شأن الاسلوب اليوناني .. وان عبدالحميد نقل هذا الاسلوب الى اللغة العربية[3] .

ان مجرد هذا الاستنتاج لا يكفي ، ما لم يقم نص على أن عبدالحميد كان يعرف اليونانية ..

ولو قال طه حسين انه متأثر باللغة اليونانية تأثرا غير مباشر عن طريق أستاذه سالم الذي كان يتقن هذه

---

(١) ج ١ ص ٦٠ وما بعدها .
(٢) ج ١ ص ٧٢٥ وما بعدها .
(٣) حديث الشعر والنثر ص ٤٤ .

اللغـة[1] ، لوجدنا في كلامه شيئا من الوجاهة .. ولكنه قال انه كان « شديد الاتصال باليونانية » .

وقد ناقش هذا الرأي من المؤلفين المحدثين الدكتور « شوقي ضيف » في كتابه « تاريخ الادب العربي ـ العصر العباسي »[2] ،كما ناقشها الدكتور حسين نصار في كتابه « نشأة الكتابة الفنية في الادب العربي » ، فقد قال عـن ظاهرة استعمال الحال انه « لا يكثر منها وحدها ، بل لعله يأتي ببعض الصيغ الاخرى أكثر مما يأتي بها ، فتراه يكثر من التفضيل ،والتمييز ،والمفعول ،والمفعول لأجله ، وأساليب العلة ، ومما لا شك فيه أن صيغة التفضيل مع التمييز أكثر دورانا في كتابته من الحال .. »[3] .

ان الذين يلحقون طريقة عبد الحميد في رسائله أو أسلوبه الادبي فيها ـ باللغة الفارسية تارة ، أو اللغـة اليونانية تارة أخرى ،كأنهم يريدون أن يجردوه من قدرته على الابتكار ، ويحرموه هذه الاولوية السابقة في مجـال الرسائل الادبية .. دونما أن يملكوا دليلا ناصعا قويا !

---

(1) ص ١٧١ من الفهرست لابن النديم .
(2) ص ٤٧٧
(3) ص ١٦٤

ومهما يكن الأمر •• ومهما اختلفت آراء النقاد من قدامى ومحدثين ، في منابع أدب عبدالحميد ، فقد أصبح في العربية أستاذ مدرسة ، هو فيها متبوع لا تابع •

عبدالحميد ومروان بن محمد

واتصلت أسبابه بأسباب مروان بن محمد ، حينما كان هذا واليا على أرمينية ، قبل أن يتولى الخلافة •• ولقد وجد عبدالحميد حظوة ورعاية عظيمتين عند مروان فانقطع اليه •

ويروى عنه ، أنه حينما بلغ خبر تولية مروان الخلافة وكان في نفر من خاصته سجد مروان وأصحابه شكرا لله ، عدا عبدالحميد فانه لم يسجد ، فتساءل مروان قائلا له : لم لا سجدت ؟ فقال : ولِم أسجد على أن كنت معنا فطرت عنا ؟ فقال اذاً تطير معي •• فقال عبدالحميد : الآن طاب السجود وسجد • •

وتكشف هذه القصة عن حضور بديهة عبدالحميد ، وحدة ذكائه •• كما تكشف عن حبه العميق لمروان •

ولا يقلل من أثرها أن يروى مثلها عن سعيد بن الوليد

الكلبي ، كاتب هشام ، حينما تولى هشام الخلافة[1] ..
ذلك أن لعبد الحميد قصصاً أخرى ، تدل على الذكاء
وسرعة البديهة ، وحسن التصرف ، ستأتي في مواقعها ان
شاء الله من هذه الترجمة ..

وقد ظل عبدالحميد في معية مروان بن محمد ،
منقطعا اليه ، أثيرا عنده ، ملازما له ، وكانت الرياح تهب
عاصفة عنيفة في وجه مروان بن محمد ، لتقتلع جذور
الخلافة الأموية ، وتنقلها الى بني العباس ..

ولم يكن مروان ، ضعيفاً ولا خوّاراً ، ولكن الأحداث
كانت أكبر من عزيمته ، والظروف كانت قد استحكمت
أسبابها ضده .. حين لا ينفع حزم ولا عزم ..!

وكان رجله الاول ، وكاتبه المفضل ، عبدالحميد ،
لا ينقصه ذكاء ولا دهاء ، يجمع إليهما بلاغة ساحرة تنحني
لها الرؤوس اجلالا وإكبارا وإعجابا .. يصحبها الاخلاص
لسيده ، بل التفاني في سبيله حتى الموت .. فلم يكن
عبد الحميد من يهاب الموت ، أو يخشى الرزايا ..

---

(١) الوزراء والكتاب ـ للجهشياري ص ٥٩ .

كان يكافح بقلمه . ويقاوم بكل ما اوتي ذلك القلم من براعة وابداع .. وبكل ما أوتي عقله النير من ذكاء .

ولكن الاحداث كانت ــ كما قلت . عظيمة ، وكانت روافد السيل تتجمع من كل مكان ، حتى اقتلعت دوحة بني أمية من الشرق ..

واذا أخذنا في الاعتبار ملازمة عبدالحميد الكاتب لمروان تلك الملازمة الكاملة ، فانا لا نعجب ان عاش معه فترة من الحياة المضطربة المليئة بالفتن والحروب .. فقد كان مروان قبل أن يتولى الخلافة في مركز حماية الثغور . ومقاومة ثورات الخارجين على الخلافة .

ثم دخل مع بعض عمومته في صراع من أجل الخلافة، حتى استقر له أمرها في الشام ، ولم يكد يفعل ، حتى دخل في صراع جديد عنيف مع بني العباس ، وقد اضطره هذا الصراع أن ينسحب من اقليم الى آخر ، مفارقا موطن آبائه وأجداده ، حتى انتهى به الامر الى مصر ، حيث لجأ الى قرية أبو صير ، ومن ثم أخذ فقتل ..

وكان عبدالحميد أثناء كل تلك الاحداث ، في خاصة مروان لا يفارقه ، حتى اختتم حياته بالخاتمة نفسها ..

فأخذ هو الآخر وعذب ، وقتل ..!!

ولقد كان مروان ، يشعر بخطر شخصية عبدالحميد ، وانــه ان لجــأ الى خصومــه ، فسيعرفون له مكانتــه ، ويكرمونه ، ويضعونه في المكان اللائق .. وقد عرض عليه فعلا أن يفعل ذلك حينما تأزمت الامور ، ايثــارا لحياته ، ولكن عبدالحميد ، رفض باصرار أن يتخلى عن صاحبــه وصديقه في أيام محنته ، والقصة ، كما يرويها الجهشياري في « الوزراء والكتاب » هي بنصها :

« لما قوي أمر بني العباس وظهر ، قال مروان لعبد الحميد : انا نجد في الكتب ، ان هذا الأمر زائل عنـــا لا محالة ، وسيضطر اليك هؤلاء القــوم (يعني ولـــد العباس) ، فصر إليهــم ، فاني أرجو أن تتمكن منهــم فتنفعني في مخلفي ، وفي كثير من أسبابي[1] ، فقال له : وكيف لي أن يعلم الناس جميعا ان هذا عن رأيك ؟ وكلهم يقول : اني غدرت وصرت الى عدوك ، وأنشد :

أسر وفاء ، ثـــم أظهر غــــدرة

فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره !

---

(١) يقصد أن ما سنصير اليه من مكانة عندهم ربما استطعت بها نفعي فيما سأخلفه ورائي من أهــل وأقارب ومخلفات فندرأ عنهــا الدمار والهلاك والمصادرة .

وأنشـــد أيضا :

فذنبي ظاهـــر لا غيب فيـــه
للأئمـــه وعـــذري بالمغيب

فلما سمع ذلك مروان علم أنه لا يفعل ، ثم قال لـه عبدالحميد : الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأقبحهما لي ، ولك علي الصبر معك الى أن يفتح اللـه عليك ، أو أقتل معك » •

ولقد ضرب عبدالحميد بهذا الموقف مثـــلا أعلى في الوفاء ، بل في التضحية بالنفس في سبيل صاحبه ••

وكما كان مروان يفكر في مصير رجله الاول ، فان عبدالحميد الكاتب كان يفكر منذ البداية في مصيرسيده ، فقد كان يلمح بذكائه وبعد نظره طلائع العاصفة التي تهبّ في عنف على ملك بني أمية ، لذلك أشار عليه قبل استفحال الامور ، وقبل أن تغيب شمسهم ، أن يجعل بينه وبـــين ابراهيم بن محمد بن علي صهرا قائلا له : « فان ظهر كنت قد أعلقت بينك وبينه شيئا وان كفيته لم تُشن بصهره » • ولكن مروان رفض أن يلتمس النصر بمثل هذه الوسيلة !

وكان عبدالحميد ، يعرف أقدار ذوي الاقدار من النابغين النابهين .. وبذلك انعقدت بينه وبين ابن المقفع صداقة متينة .. وقد كان ابن المقفع هو الآخر ، علما من أعلام البلاغة ، وقمة من قممها الشامخة ..

ولئن جاز لعبدالحميد أن يحسد شخصا على نباهته فان عبدالله بن المقفع كان جديرا بحسده ، لما يتمتع به من طاقة فنيــة كبيرة في الصياغة الفنية ، وفي سعة الاطلاع . ودقة التعبير ، وروعة الديباجة .. !

ولكن عبدالحميد ، وضع الحب موضع الحسد .. وكذلك فعل ابن المقفع ، فمحض كل منهما الآخر الود .. حتى بلــغ ودهما حــد التضحية .. ومرة أخــرى أدع الجهشياري يصف قصة تضحية ابن المقفع ، وموقف عبد الحميد الكاتب من هذه التضحية ، وسرعة بادرته .. قال الجهشياري في « الوزراء والكتاب » :

« وطلب عبدالحميد بن يحيى الكاتب . وكان صديقا لابن المقفع ، ففاجأهما الطلب ، وهما في بيت ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبدالحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا .. خوفا من أن ينال صاحبه بمكروه ، وخاف عبــد

الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا فان فيّ علامات ، ووكِّلوا بنا بعضكم ، ويمضي بعض ، يذكر تلك العلامات لمن وَجّه بكم ، ففعل ذلك ، وأخذ عبدالحميد » .

واختيار عبدالحميد ابن المقفع لصداقته ، أكّد الأصالة الفنية في نفسه ، فهو يريد أن يعيش بصداقته أيضا في جو فني رفيع ، ولا ببعدان يكون كل من الكاتبين الكبيرين ، قد أثر في الآخر ، كما تفعل الصداقات من هذا النوع .. وحينئذ يصحّ أن ندخل في اعتبارنا أن عبدالحميد قد اقتبس من فن ابن المقفع ، وان العكس أيضا صحيح .

خاتمته

لم يتسامح العباسيون مع عبدالحميد بعد أن ألقوا عليه القبض ، بل أمعنوا في النكاية به ، وتعذيبه .. فقد أمر به المنصور فقطعت يداه ورجلاه ، ثم ضربت عنقه .. وقيل بل سلّمه عامر بن اسماعيل الى أبي العباس (السفاح)، فدفعه هذا الى عبدالجبار بن عبدالرحمن صاحب شرطته فقتله ، بعد أن عذبه بأن كان يحمي طستا ، ويضعه على بطنه ، وقيل على رأسه حتى مات .. !

ولما كان مقتل عبدالحميد مقترنا بتاريخ مقتل مروان وقد قتل هذا الأخير يوم الاثنين ثالث عشر ذي الحجة

سنة ١٣٢ هـ (٧٥٦٠م) في قرية أبو صير بمصر ، فان وفاة عبد الحميد تكون في هذا التاريخ أو بعده بقليل ..

والمرجح لدي هو أنه قتل مع سيده في مصر ، فذلك أليق بما جاءت به أخبار وفائه ، ولزومه صاحبه ، ووجود ذريته بعد ذلك بمصر ، كما سيأتي .

عقبه

ويحدثنا ابن خلكان في كتابه « وفيات الاعيان » ان لعبدالحميد ولدا اسمه اسماعيل ، كان كاتبا ماهرا نبيلا معدودا في جملة الكتاب المشاهير[1] .

وكذلك يحدثنا الجهشياري في كتابه « الوزراء والكتاب » ، انه « كان لعبدالحميد عقب يسكنون مصر » ولكنه يقول : « ولم يكن في أوائلهم من له نباهة ، فلما صار « أحمد بن طولون » الى نواحي مصر ، اتصل به أربعة نفر من ولده ، ويعرفون ببني المهاجر ، وكانوا يكتبون قبله الحسين الخادم ، المعروف بعرق الموت ، واستكتب أحمد بن طولون منهم « الحسن بن محمد بن أبي المهاجر » ، وكان « علي بن محمد » أخوه أسنّ منه ،

---

(١) ص ٣٩٦

واستعان « أحمد بن طولون » أيضاً بأخويهما وكانا يكنيان بأبي القاسم ، وأبي عيسى ، وخصّوا جميعا بأحمد بن طولون ، وغلبوا عليه ، واستحكمت ثقته بهم ، وكانوا من أنصب[1] الناس ، وأشدهم انحرافا عن بني هاشم »[2] .

ومن هذا النص نعرف أنه كان لعقب عبدالحميد شأن في مصر ، ولكن مما يلفت النظر أن الجهشياري ينفي أن يكون لاوائلهم نباهة بينما يذكر ابن خلكان ـ كما مرّ ـ ان ابنه اسماعيل كان كاتبا ماهرا شهيرا . بيد أننا لا نعرف شيئا عن اسماعيل هذا ، لا عن شهرته ولا عن آثاره ، ويحتمل أن تكون شهرة اسماعيل في حياة والده قبل الانتقال الى مصر ، وان أوائلهم في مصر لم تكن لهم نباهة.

آثاره

وليس لعبدالحميد مؤلفات كصديقه وصفيه عبدالله بن المقفع .. ولكنه خلّف مجموعةمن الرسائل ، قدرها القدامى بألف ورقة[3]، وهي كماقلت تعتبر فناً متفوقاً نادر المثال..

---

(1) أي كانوا من الناصبية الذين يضمرون الكراهية لأهل البيت. (2) ص ٨٢ .

(3) الفهرست لابن النديم ص ١٧٠ ، ويقول جورجي زيدان في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية أن في دار الكتب العربية بمصر رسالة خطية تنسب لعبد الحميد ..

هل كان شاعراً؟

وأُثر لعبدالحميد الكاتب شعر أيضا .. اذ يروي الجهشياري له هذه الابيات :

ترحّل ما ليس بالقافل
وأعقب ما ليس بالزائل[1]
فويلي من الخلف النازل
ولهفي على السّلف الراحل !
أبكّي على ذا ، وأبكي لذا
بكاءَ المولهة الثاكل
تبكّي من ابن لها قاطع
وتبكي على ابن لها واصل
فليست تفتّر من عبرة
لها في الضمير ومن هامل[2]
تقضّت غوايات سُكر الصِّبا
ورد التقى عنن الباطل[3]

(١) القافل : الراجع ، والابيات في الشباب ، والمشيب والشيب .
(٢) تفتر : تبخل : الهامل : المنسكب .
(٣) عنن : جمع عنان . والعنان هو اللجام .

واذا كانت هذه القطعة من شعره لا تشعرنا بالسلاسة والرقة ، التي تعرف عن شعر بعض الكتاب ـ على قلته ـ فانا نجد هذه الرقة في قطعة أخرى :ـ

كفى حزنا اني أرى من أحبه
قريبا ، ولا غير العيون تترجم
فاقسم لو أبصرتنا حين نلتقي
ونحن سكوت خلتنا تتكلم[1]

ولكن يبدو أن الجاحظ كان سيء الرأي في شعر عبدالحميد حينما قال : « وكان عبدالحميد الاكبر وابن المقفع[2] ، مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما ، لا يستطيعان من الشعر الا ما لا يذكر مثله » .

ومهما يكن الامر فلم تتوفر لنا نماذج كافية من شعر عبدالحميد ، تمكننا من الحكم له أو عليه ، غير ماسلف ذكره .. وهو غير كاف .

---

(١) هذا الشطر يذكرني بقول الشاعر :

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا
ونحن سكوت والهوى يتكلم

(٢) سئل ابن المقفع لم لا تقول الشعر فقال :
الذي أحبه لا يطاوعني أو لا يجيئني والذي يجيئني أو والذي يطاوعني لا أحبه .

وأسلوب عبد الحميد الكاتب في النثر ، رائع جميل ، يبتعد عن التزام السجع ، فهو مترسل .. وكثيراً ما يطيل في رسائله ، الا حينما يقتضي الأمر الايجاز فيوجز ، ويكون ايجازه حينئذ مركّزاً جميلا مؤدياً للغرض .

ومن بديع مختصراته ما كتبه يوصي بشخص : « حق موصل كتابي إليك كحقه علي ، اذ جعلك موضعاً لأمله ورآني أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدّق أمله » .

ومن رائع مطولاته رسالته المشهورة الى الكتاب ، ووصيته إليهم ، وهي التي أقدّمها اليوم وأضعها بين يدي القارىء الكريم ، وهي رسالة معروفة في كتب الأدب يسميها بعضهم « نصيحة الكتاب وما يلزم أن يكونوا عليه من الأخلاق والآداب » .

وقد أوردها الأستاذ محمد كرد علي ، بعد دراسة ضافية عن عبد الحميد وأدبه ، في كتابه « أمراء البيان » مع رسالته الأخرى الى ولي عهد مروان بن محمد ذاكراً ان هاتين الرسالتين تشكلان أطول رسائل عبد الحميد .. وقد أطال عندهما الوقوف . وأتى برسائل أخرى

لعبدالحميد وكان نشرها أيضا في كتابه «رسائل البلغاء»[1] وقد أحسن في كل ذلك •

وقد اعتبر عبد الحميد أستاذ المترسلين ، أي الذين لا يلتزمون السجع ، ولا يتكلفون ، قال ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان لدى ترجمته له :

« عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا ، •• وانه أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات في فصول الكتب ، فاستعمل الناس ذلك بعده • »

ويقول عنه الدكتور شوقي ضيف في كتابه « تاريخ الأدب العربي ج ٢ : « وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتاب هذا العصر (أي عصره) وأبدعهم ، وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر[2] ، ونصح الكتاب بأن يتخذوا كتابته نموذجا لهم » •

---

(١) « رسائل البلغاء » نشر في طبعته الأولى سنة ١٣٢٦ هـ نشره الشيخ طاهر الجزائري بالتعاون مع الاستاذ محمد كرد علي ، ثم جدد الأخير طبعه مع رسائل أخرى سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٣م •

(٢) انما سمي الأكبر لان كاتباً آخر ـ كما عرفنا ـ كان يسمى عبد الحميد وهو عبد الحميد الأصغر •

ويقول عنه ابن النديم في « الفهرست »[1] :

« وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل ، واحد دهره ... »

ومن أشهر تلامذة عبد الحميد الكاتب في حياته ، يعقوب بن داود ، الذي أصبح فيما بعد ، وزير الخليفة المهدي ، فقد كان يكتب بين يديه ، وعليه تخرج .

وخلاصة القول ، ان عبد الحميد الكاتب ، كان بعيد التأثير في الكتابة الفنية ، وانه أدخل على النثر الفني ، من التطوير ، ما جعله بحق رائد مدرسة نثرية جديدة ، فهو وان يكن قد استفاد من أعلام البلاغة قبله ، بدءاً بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وانتهاءً باستاذه سالم ، فقد أرسى بطرائق تعبيرية مبتكرة قواعد جديدة للنثر الفني ، اتبعها الكتاب بعده عبر العصور ، حتى يومنا هذا .

حقاً لقد كان صديقه عبد الله بن المقفع رائدا آخر ينافسه في هذا الميدان ، ولكن عبارة عبد الحميد ، في ميدانه الذي تخصص فيه ، تظل أكثر نصاعة ،، ووضوحاً ، ودلالة على المعنى المراد . وقد فضّله الدكتور طه حسين ،

---

(١) ص ١٧٠ .

على ابن المقفع في كتابه « من حديث الشعر والنثر » بعد أن استعرض خصائص كل منهما[1] .

وقد أوردت آراء بعض المؤرخين والنقاد في منزلة عبد الحميد ، في مواضع متفرقة من هذا الكتيب[2] .

---

(١) ص ٤٨ و ٤٩ .

(٢) استعرض هذه الآراء الدكتور « حسين نصار » في كتابه « نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ص ١٦٦ وقال فيها عن عبد الحميد « .. كان القمة التي وصلت إليها الكتابة الفنية الأموية ، وأخذت عندها صورتها النهائية، وعندما جاء الكتاب بعده استمدوا تقاليدهم الكتابية، وقواعدهم الفنية من هذا العلم البارز » .

البَابُ الثاني

رسالته الى الكتاب

نص رسالته الى الكتاب

« أما بعـــد ، حفظكم الله يا أهل هـــذه الصناعة ، وحاطكم ، ووفقكم ، وأرشدكم ، فان الله جل وعز ، جعل النـــاس ــ من بعـــد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين ــ سُوَقاً[1] ، وصرّفهم في صنوف الصناعات التي سبب منهـــا معاشهم ، فجعلكم معشر الكتاب ، في أشرفها صناعة : أهل الأدب ، والمروءة ، والحـــلم والروية[2] ، وذوي الاخطار[3] والهمم ، وسعة الذرع[4] في الافضال[5] والصلة[6] ، بكم ينتظم الملك ،

(١) سوَقاً جمع سُوقه ، والسوقة : الرعية . وهـــذا نص الجهشياري في الوزراء والكتاب ، وكذلك أورده محمد كرد علي في (أمراءالبيان) ولكنه أورده في « رسائل البلغاء » « أصنافا » بدلا من سوقا . وكذلك النص في « جمهرة رسائل العرب » لأحمد زكي صفوت ، وجاء بعدها فيـــه : « وان كانوا في الحقيقة سواء » وهو في مقـــدمة ابن خلدون « أصنافاً وان كانوا في الحقيقة سواء » .

(٢) الروية : الاناة وعدم العجلة والتفكير في الأمور ، وفي جمهرة رسائل العرب « العلم والرواية » .

(٣) ذوي الاخطار : أي من ذوي المكانة .

(٤) الذرع : الطاقة والوسع .

(٥) جمع : الفضل : وهو الاحسان والانعام .

(٦) الصلة : العطية والجائزة .

وتستقيم للملوك أمورهم ، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم[1] ويجتمع فيئهم[2] ، وتعمر بلادهم ، يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السنيّ والدني[3] من ولايته ، لايستغني عنكم منهم أحد ، ولا يوجد كافٍ[4] الا منكم ، فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون[5] ، أنتم ــ اذا آلت[6] الأمور الى موئلها[7] ، وصارت الى محاصلها[8] ــ ثقاتهم[9] دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصحائهم ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم سربال[10] النعمة عليكم .

---

(١) سلطانهم : أي سيطرتهم وتمكنهم من الحكم ونفوذهم .
(٢) الفيء : الخراج .
(٣) السني : الرفيع أو الجليل ، والدني : الصغير أو الحقير .
(٤) كاف : أي من يكفي عنكم أي يغني في الأمور والاحداث .
(٥) البطش : الأخذ بالعنف .
(٦) و (٧) آلت : رجعت . موئلها : مرجعها .
(٨) محاصلها : أمكنة تحصيلها واجتماعها .
(٩) ثقاتهم : أهل الثقة .
(١٠) السربال : القميص أو الدرع ، أو كل مالبس .

وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلّها أحوج الى استخراج خلال[1] الخير المحمودة ، وخصال[2] الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب ، ان كنتم على ماسبق به الكتاب من صفتكم[3] فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ، الى أن يكون حليما في موضع الحلم ، فقيها في موضع الحكم ، مقداما في موضع الاقدام ، ومحجما[4] في موضع الاحجام ، ليّنا في موضع اللين ، شديداً في موضع الشدة ، مؤثِراً للعفاف ، والعدل والانصاف ، كتوماً للأسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالماً بما يأتي[5] ويذر[6] ، يضع الأمور في مواضعها ، قد نظر في كل صِنف من صنوف العلم فأحكمه[7]

---

(١) و (٢) الخلال والخصال بمعنى واحد ، وهي الأخلاق سواء أكانت حسنة أو سيئة .

(٣) في « جمهرة رسائل العرب : » اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم .

(٤) المحجم عن الأمر الذي ينصرف عنه ، وفي « جمهرة رسائل العرب » محجاماً .

(٥) يأتي هنا بمعنى يأخذ .

(٦) يذر : يدع : يترك .

(٧) احكمه : أتقنه .

فان لم يحكمه شدا[1] منه شيئاً يكتفي به ، يكاد يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ، مايرد[2] عليه قبل وروده ، وعاقبة مايصدر[3] عنه قبل صدوره ، فيعدّ لكل أمر عدته ، ويهيء لكل أمر أهبته[4] ، فتنافسوا معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عزوجل ، والفرائض[5] ، ثم العربية[6] فانها ثقاف[7] ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فانه حلية[8] كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام[9] العرب والعجم[10] وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ماتسمون[11] اليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم في

---

(١) شدا من العلم والادب : حصل منه طرفا .

(٢) ما يرد عليه : مايدخل عليه من الأمور .

(٣) ما يصدر عنه : أي ما يحصل منه من أعمال .

(٤) الأهبة : العدة ، وفي « جمهرة رسائل العرب » عدته وعتاده .

(٥) الفرائض : الأحكام المفروضة على العباد ، المراد علم الفقه ويدخل في ذلك علم المواريث .

(٦) أي اتقان علوم اللغة العربية ، من نحو وصرف وغيرهما .

(٧) أي التي تقومها وتجعلها حاذقة ماهرة .

(٨) أي يحليها ويزينها .

(٩) أيام العرب والعجم : حروبها .

(١٠) تطلق العرب لفظ العجم ، ونقصد به الأمم التي ليست عربية .

(١١) سما بمعنى ارتفع ، وتسمون اليه بهممكم ، أي تتطلعون اليه .

الحساب ، فانه قوام[1] كُتّاب الخراج[2] منكم ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها[3] ، وسفساف الأمور ومحاقرها[4] فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا[5] صناعتكم واربأوا[6] بأنفسكم عن السعاية[7] والنميمة[8] ، وما فيه أهل الدناءة[9] والجهالة [10] ، وإياكم والكبر والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة[11] بغير إحْنة[12] ، وتحابوا في الله عزّ وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليها ، فانها شيم[13] أهل الفضل والنبل من سلفكم[14] .

---

(١) قوام الشيء ، أي عماده الذي يعتمد عليه .
(٢) الخراج : المال الذي كان يرد الى خزينة الدولة من الاراضي وخلافها .
(٣) أي كبيرها وصغيرها .
(٤) أي ما يحتقر منها . (٥) نزهوا : أبعدوا عنها ما يشينها .
(٦) أربأوا بأنفسكم : ارتفعوا بها ، يدعوهم للترفع عما ذكر ..
(٧) السعاية : الوشاية .
(٨) النميمة : نمّ الحديث : أظهره بقصد الاساءة والوقيعة .
(٩) الدناءة : الخساسة . (١٠) الجهالة والسفه والجفاء : الضلالة ؟
(١١) مجتلبة : مكتسبة . (١٢) الاحنة : الحقد .
(١٣) شيم : جمع شيمة : أي خصلة .
(١٤) السلف : كل من تقدم من الأجيال : والمقصود هنا جيل الصحابة ومن تبعهم .

« وان نبا[1] الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى ترجع اليه حاله ، وان أقعد[2] الكبر[3] أحدكم عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا[4] بفضل[5] رأيه وتجربته ، وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه[6] واستظهر به ليوم حاجته اليه ، أحدب وأحوط منه على أخيه وولده ، فان عرضت في العمل مَحْمَدَة فليضفها الى صاحبه ، وان عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملال[7] عند تغير الحال ، فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى

---

(١) نبا الزمان به : لم يوافقه ولم يسعده .

(٢) و (٣) أقعد الكبر : أي حال تقدمه في السن بينه وبين الكسب والاجتماع بصحبه .

(٤) استظهر : استعان .

(٥) بفضل رأيه : برأيه الراجح .

(٦) اصطنعه : أحسن اليه .

(٧) الملال : السأم .

المرآة[1] ، وهو لكم أشد منه لها ؛ فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصحب الرجل اذا صحبه في بدء أمره من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ونصيحته . وكتمان سره وعفافه وتدبيره ، بما هو حري[2] أن يحققه بفعاله ، في غير حين الحاجة الى ذلك منه . فابذلوا وفقكم الله ذلك[3] من انفسكم في حال الرخاء والشدة ، والحرمان والمواساة ، والاحسان والاساءة ، والغضب والرضا ، والسراء والضراء ، فنعمت السمة[4] هذه لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة .

---

(1) في « أمراء البيان » الى المراة .. وفي مقدمة ابن خلدون جاء النص هكذا (... الى القراء ، وهو لكم أفسد منه لهم فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب عليه من حقه فواجب عليه أن يبذل له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ماهو جزاء لحقه ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه ، والاضطرار الى مالديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله .. الخ .) وفي نسخة الرسالة المطبوعة بتونس أسرع منه الى الفراء بالفاء لا (القاف) ولعل ما أثبته أقربها الى المراد .

(2) حري : جدير .

(3) ونص هذه الفقرة في جمهرة رسائل العرب هكذا « فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه الرجل يبذل له من نفسه مايجب له عليه من حقه ، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وصبره ونصيحته ، وكتمان سره وتدبير أمره ، ماهو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه ، والاضطرار الى مالديه ، فاستشعروا ذلك ـ وفقكم الله من أنفسكم .. الخ . »

(4) السمة : الشارة والعلامة .

« فاذا وُلي الرجل منكم ، وصيّر اليه من أمور خلق الله وعباده أمر ، فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر[1] طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فان الخلق عباد الله وأحبهم اليه أرفقهم بعباده ، ثم ليكن بالحق حاكما ، وللاشراف مكرما ومداريا ، وللفيء[2] موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفاً[3] ، وليكن في مجلسه متواضعا ، حليما[4] لينا ، وفي استجلاب[5] خراجه واستقصاء[6] حقوقه رفيقا .

« واذا صحب أحدكم الرجل ، فليستشف[7] خلائقه ،

---

(١) يؤثر : يفضل ويختار .

(٢) الفيء : الخراج : المقصود خزينة الدولة .

(٣) متألفاً : أي يتحبب اليهم بالخلق الكريم ، والمعاملة الطيبة ليوثق العلاقة بينهم وبين الجهة التي يمثلها .

(٤) حليما : أي صاحب أناة وعفو وسعة في الصدر .

(٥) استجلاب : استخراج .

(٦) استقصاء حقوقه : استيفاء الحقوق كاملة .

(٧) الاستشفاف : هو محاولة رؤية ما وراء الشيء ، كناية عن كثرة الاختبار ، وفي مقدمة « ابن خلدون : « فليختبر أخلاقه » واستشفاف الثوب هو نشره في الضوء للتفتيش عن عيوبه .

كما يستشف الثوب يشتريه لنفسه ، فاذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبح ، بألطف حيلة ، وأحسن مداراة ورفق . فقد عرفتم أن سائس البهيمة اذا كان حاذقا[1] بسياستها التمس[2] معرفة أخلاقها ، فان كانت رموحا[3] اتقاها من رجلها ، وان كانت جموحاً[4] لم يهجها اذا ركبها ، واذا كانت شموساً[5] توقاها[6] من ناحية يديها ، وان خاف منها عضاضاً[7] توقاها من ناحية رأسها ، وان كانت حروناً[8] لم يلاحها ، وتتبع هواها في طريقها ، وان استمرت عطفها[9] فيسلس[10] له قيادها .

« ومن هذا الوصف ، من سائس البهيمة ورفق

(1) حاذقاً : ماهرا .
(2) التمس : طلب .
(3) المقصود بالرموح هنا : الدابة التي ترفس .
(4) الدابة الجموح : العاتية ، التي تخرج عن طوع صاحبها .
(5) الشموس : النفور ، وفي بعض النصوص شبوبا ، والشبوب هي الفرس التي ترفع يديها .. تجمح بهما .
(6) توقاها : اجتنبها وحذرها .
(7) عضاضاً : عضا .
(8) الحران : هو أن تقف الدابة عن الجري وترجع الى الوراء في الوقت الذي يطلب منها الركض الى الأمام .
(9) عطفها : ردها .
(10) يسلس : يسهل .

سياسته ، دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وصحبهم .

.« والكاتب بفضل رأيه ، وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره[1] ويناظره[2] ، ويفهم عنه . ويخاف سطوته[3] ، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته ، وتقويم أوده[4] ، من سائس البهيمة التي لا تحير[5] جوابا ، ولا تعرف خطأ ولا صوابا الا بقدر ما يصيرها اليه سائسها ، وصاحبها الراكب لها ، فأدقوا[6] — يرحمكم الله — النظر ، وأعملوا فيه الروية[7] والفكر ، تأمنوا

---

(١) يحاور : يراجع في الكلام .
(٢) يناظره : يجادله .
(٣) سطوته : قهره .
(٤) الأود هنا : الاعوجاج .
(٥) لا تحير : لا ترد .
(٦) أدقوا النظر : أي استعملوا دقة النظر ، وورد أمعنوا .
(٧) الروية : التفكير والتأمل .

ممن صحبتموه ــ بإذن الله ــ النَّبْوَة[1] ، والاستثقال[2] والجفوة[3] ، ويصيروا منكم الى الموافقة ، وتصيروا منهم الى المواساة[4] والشفقة ان شاء الله .

« ولا يُجوزن[5] الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه ، وبنائه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره ، قدرَ صناعته ، فانكم ــ مع مافضلكم الله به من شرف صناعتكم ــ خدم لا تحتملون في خدمتكم على التقصير ، وخُزان[6] وحَفَظة[7] لا يحتمل منكم التضييع والتبذير[8] ، واستعينوا على عفافكم بالقصد[9] في كل ما عددت عليكم فنعم العون عونكم على صيانة دينكم ، وحفظ أمانتكم ، وصلاح معاشكم ، واحذروا

---

(١) النَّبْوَة : الجفوة أو الابعاد .

(٢) الاستثقال : الشعور بالثقل والكراهية .

(٣) الجفوة : من الجفاء : وهو ضد البر .

(٤) المواساة : العطف .

(٥) لا يجوزن : أي لا يتجاوز : لا يتعدى .

(٦) خزان : جمع خازن .

(٧) الحفظة : جمع حافظ ، وهو الموكل بالشيء ليحفظه .

(٨) التبذير : هو تفريق المال اسرافاً .

(٩) القصد : الاعتدال والرشد ، والاستقامة .

متالف السرف[1]، وسوء عاقبة الترف[2]، فانهما يعقبان[3] الفقر ، ويذلان الرقاب ، ويفضحان أهلهما ، ولا سيما الكتاب » .

« وللأمور أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا في مؤتنف[4] أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة[5] ، وأرجحها حجة ، وأحمدها عاقبة ، واعلموا ان للتدبير آفة وضدا لا يجتمعان في أحد أبدا ، وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ[6] عمله ورويته[7] ، فَليَقْصِدِ الرجل منكم في مجلس تدبيره قصد الكافي[8] في منطقة ، وليقصد[9] في كلامه ، وليوجز[10]

---

(١) السرف : ضد القصد ، تجاوز الحد والافراط .
(٢) الترف : الاكثار من التنعم .
(٣) يعقبان : يخلفان : أي تكون النتيجة هي الفقر .
(٤) مؤتنف : إئتنف واستأنف بمعنى أخذ في الأمر وابتدأه . أي فيما هو جديد عليكم من الأمور .
(٥) المحجة : الطريق .
(٦) انفاذ : اجراء .
(٧) الروية : التفكر في الامر .
(٨) الكافي : المقتنع .
(٩) ليقصد : ليقتصد .
(١٠) ليوجز : ليختصر .

في ابتدائه ، وليأخذ بمجامع[1] حججه[2] ، فان ذلك مصلحة لعقله ، ومجمة[3] لذهنه ، ومدفعة[4] للتشاغل عن اكثاره ، وليضرع الى الله في صلة توفيقه ، وامـــداده بتسديده ، مخافة وقوعه في الغلط المضرّ بدينه وعقله وأدبه ، فانــه ان ظن منكم ظان ، أو قال قائل ، ان الذي برز من جميل صنعته ، وقوة حركته انما هــو بفضل حيلته ، واصالة[5] رأيه ، وحسن تدبيره ، كان متعرضا لأن يكله[6] الله الى نفسه ، فيصير منها الى غير كاف[7] ولا يقل أحـد منكم أنه آدب وأعقل ، وأحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه في صناعته ، فان أعقل الرجلين عند ذوي الألباب[8] القـائل ان صاحبه أعقل منه ، وأحمقهما الذي يرى انه أعقل مـن صاحبه ، لعجب هـذا بنفسه ، ونبذ[9] ذلك ، العُجْبَ

---

(١) مجامع الشيء : جميع أجزائه .
(٢) حججه : ادلته .
(٣) مجمة لذهنه : أي معينا على اجتماع أفكاره من الجَمام وهو الراحة .
(٤) مدفعة : أي أبعاد : المعنى ان التركيز في ايراد الأدلة يغنيه عـن الاكثار دونما طائل .
(٥) أصالة الرأي : جودته .
(٦) يكله : يسلمه يتركه .
(٧) غير كاف : لا يكفي ، أي لا يجد من يكفيه .
(٨) الألباب : العقول .
(٩) نبذ : طـرح .

وراء ظهره ، اذ كان الآفة العظمى من آفات عقله ، ولكن قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه ، من غير عجب برأيه ، ولا تزكيه[1] لنفسه ، ولا تكاثر[2] على أخيه وكفئه[3] ، ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته .

« وأنا أقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل ، « من تلزمه النصيحة يلزمه العمل » وهو جوهر[4] هذا الكتاب ، وغرة[5] كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره وختمته به ، تولانا[6] الله واياكم ـ معشر الكتاب ـ بما يتولى به من سبق علمه في سعادته وارشاده ، فان ذلك اليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله . » اهـ .

---

(١) ولا تزكية لنفسه : أي مديح لها .
(٢) تكاثر : تفاخر .
(٣) كفئه : مثيله .
(٤) جوهر هذا الكتاب أي أساسه وقوامه .
(٥) أي أوله أو أهمه وأكرمه وأفضله .
(٦) تولانا : نصرنا ورعانا .

نظرة تحليلية

إذا ألقينا نظرة تأمل على هذه القطعة البديعة من نثر عبد الحميد ، نجد أنه :

١) من ناحية الموضوع •

قد اختار موضوعاً حيوياً ، هاماً ، تتصل أهميته بالدولة التي تعتمد على هؤلاء الكتاب (الموظفين) في ادارة شؤونها ، وعلى تنظيم العلاقة بينها وبين الشعب ، وهم المؤتمنون على أسرارها وأخبارها ، وأموالها •• ويعتبر صلاح هذه الفئة صلاحاً للدولة ، ونجاحاً لسيطرتها ، واستتباباً لأمنها وطمأنينة شعبها ••

وتتصل أهمية هذ الموضوع أيضاً ، بهذه الفئة من الناس •• فان رسم الطريق الصحيح السليم أمامها ، دستورا واضحاً لخير معين على تكوين الكاتب الناجح ، ومن ثم ، تمهيد الطريق أمامه لمستقبل زاهر ، يحقق طموحه في الوصول الى أعلى المناصب وأرفعها •• وكأن عبدالحميد يعطي القدوة من نفسه ، ليصل بالناجح من هذه الفئة الى تسنم منصب الوزارة !

وقد عبر عبد الحميد عن أهمية عمل الكتاب ، بالنسبة للدولة وللكتاب أنفسهم ، بما لا مزيد عليه !

ومما هو جدير بالتسجيل حقاً ، ان عبـــد الحميد في هــذه الرسالة قــد خرج عن عادته •• فقد اعتــاد أن يُوجِّه رسائله الى شخص بعينه ، أو فئة من الناس بعينها •• وهويفعل ذلك اما استجابة لأمر رؤسائه ، أولحاجة شخصية له •• ولكنه هنا يقصد الى هذا الموضوع قصدا ، بوازع أسمى هووازع التوجيه والارشاد، وبحوافز ذاتية محضة•• وكأنه يكتب مقالة لتنشر في صحيفة ، أو يضع كتيبا بــين أيدي القراء •• وهذا مما يميز هذه الرسالة بميزة خاصة •

وقد عبّر عن هذه الميزة الدكتور « عمر فروخ » في كتابه (تاريخ الأدب العربي) ، بين يدي النص الذي أورده من الرسالة ، حينما قال ص ٧٢٩ :

(هذه الرسالة تخرج عن معنى الرسائل الادارية ، انهــا في الحقيقة « موضوع في رسالة » ، أو هي أساس لكتاب يؤلف في آداب الكتابة وقواعدها ••) •

ويبدو ان هذه الحوافز الذاتية المحضة ، قد جعلت هذه الرسالة أقرب الى النفوس من غيرها •

كما يبدو ان الكتّاب كانوا أكثر حفاوة بهذه الرسالة

الموجهة إليهم ، لأنها (تخصهم) في الدرجة الأولى ، فاهتموا بها اهتماماً خاصاً جيلاً بعد جيل ..

واحتفى بها المؤلفون ، فأورد بعضهم نصها كاملاً ، وأورد أكثرهم منها فقرات .

يقول الدكتور حسين نصار في كتابه « نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي » :

« .. هذه الرسالة ذات أهمية كبيرة في نظر دارس الأدب العربي ، وخاصة حركة التأليف ، فهذه الرسالة تشمل .. جلّ ان لم يكن كل ما يطلب من الكتاب ، كأنما تضع القوانين التي يجب ان تسود على ديوان الرسائل ، ويخضع لها من يريدون دخوله ، فهي ترسم لهم الآداب الخلقية التي يجب أن يتحلوا بها ، ثم ترسم لهم الآداب الثقافية ، فتقسمها الى ثقافة خاصة بالدين والفقه والتاريخ والحساب ... ، وقد أثرت هذه النظرية في المؤلفين بعد عبد الحميد ، فمنهم من أخذ فرعاً من هذه الثقافة ، فألف فيه ، مثل ابن قتيبة[1] الذي تناول الناحية اللغوية في « أدب الكاتب » ، ومنهم من تناول الثقافة الخاصة مثل

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، من أئمة الأدب ، ولد سنة ٢١٣ هـ ٨٢٨م وتوفي ٢٧٦ هـ ٨٨٩م .

الصولي[1] في « أدب الكتاب » ، ومنهم من تناول الثقافتين العامة والخاصة ، مثل النويري[2] في « نهاية الارب في فنون الأدب » ، ومنهم من تناول الآداب الثقافية ، والآداب الأخلاقية جميعاً ، مثل القلْقشندي[3] في « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ، ويصرح القلقشندي في الفصل الذي عقده لآداب الكتاب الخُلُقية فيقول : « أصل هذه الآداب الذي ترجع اليه ، وينبوعها الذي تفجّرت منه ، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، التي كتبها الى الكتاب يوصيهم فيها » . ولكنا نقول إن هذه الرسالة ينبوع هذا الفصل ، والفصول الأخرى الباقية في كتابه ، أعني ينبوع جميع ما احتوته تلك الكتب التي ألفها الأدباء في بيان ما يحتاج اليه الكتّاب ، وان كانوا في الحقيقية أضافوا بعض العلوم التي لم يفكر فيها عبد الحميد ، مثل الجغرافية والفلك وغيرها ، ولكن كل تلك العلوم كانت من إيحاء عبد الحميد أيضاً »[4] اهـ .

---

(١) أبوبكر محمد بن يحيى بن عبدالله من كبار الأدباء، توفي سنة ٣٣٥ هـ ٩٤٦م.

(٢) النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب القرشي التيمي البكري ولد سنة ٦٧٧ هـ ١٢٧٨ م وتوفي سنة ٧٣٣ هـ ١٣٣٣ م .

(٣) أبو العباس أحمد بن علي ، توفي سنة ٨٢١ هـ ١٤١٨ م .

(٤) ص ١٣٢ .

ورجوع كتاب « صبح الأعشى »[1] برمته الى فكرة عبد الحميد الكاتب ، هـو الموضوع الذي توسع فيـه الدكتور « مصطفى الشكعة » في كتابه « الأصول الأدبية في صبح الأعشى[2] » اذ يقـول ان فكرة كتاب « صبح الأعشى » ومنهاجه ليست الا المبادىء السامية التي وصفها عبد الحميد الكاتب ووجهها الى جمهرة الكتاب من بعده نصحاً منه وارشادا ، والتي حرص على حفظها والعمل بها جمهرة كتاب العربية ، منذ أن وضعها عبد الحميد الى عصر القلقشندي وما بعـده ، والتي ضمنها القلقشندي منهـج كتابه كاملة غير منقوصة » ..

ويقول أيضـا « .. والقلقشندي يأخـذ نصـائح عبد الحميد ، ويترسم خطاه ، ويترجمها ترجمة أمينة الى دراسات مطولة ، ويقدمها في شكل أبحاث مستفيضة منفذا مبادىء عبد الحميد ووصاياه ، مبـدأ بعد مبدأ ، ووصية بعد وصية » .

ثم يأخذ في شرح كلامه هذا مقارناً وصايا عبدالحميد ، بما عقد صاحب كتاب صبح الأعشى من أبواب في كتابه .

---

(١) نواة كتاب « صبح الأعشى » كانت مقامة وضعها القلقشندي : ارتكزت على مبادىء عبد الحميد ، في رسالته الى الكتاب ، ثم توسع فيها جدا ، حتى اصبحت كتابا ضخماً .

(٢) ص ٦٦ وما بعدها .

ويذهب أيضا الى أن « ابراهيم بن المدبر »[1] صاحب « الرسالة العذراء » ، قد استمد أيضا أفكار رسالته وعناصرها من رسالة عبد الحميد ..

يقول : « .. لا يفوت الباحث المدقق أن يردّ كثيرا من أفكار القلقشندي ومنهجه ـ بالاضافة الى عبدالحميد ـ الى كاتب عربي نابه آخر ، اعتبر نفسه معلما للكتاب ، ورائدا لهم ، وخليفة لعبدالحميد ، فألف رسالة وجهها اليهم ، تشبها بعبد الحميد ، أسماها « الرسالة العذراء » هذا الكاتب هو ابراهيم بن المدبر ، ورسالته العذراء رسالة قيمة مفرطة في الطول ، استقى روحها من الجاحظ واستمد أفكارها ، وعناصرها من رسالة عبدالحميد ، انه أخذ مبادىء عبدالحميد ، وأطنب فيها ، وجعل لها فروعا وأغصانا ، ومن هنا كان ابن المدبر وسيطا بين القلقشندي وعبد الحميد .. » . ص ٦٧

على أن هذا مجرد مثل لمن تأثر بعبدالحميد في رسالته الى الكتاب ، واقتفى خطاه ، وليس محاولة لتفصيل مدى ذلك التأثر .. وتعداد الذين تأثروا بها ...

---

(١) ابراهيم بن محمد بن عبد الله ابن المدبر « بفتح الباء المشددة » توفي سنة ٢٧٩ هـ ٨٩٣ م له الرسالة العذراء أخرجها الدكتور زكي مبارك .

٢ ـ أما عن الأسلوب :

فقد تميز نثر عبدالحميد على وجه العموم ، باسلوب خاص ، اختطه لنفسه ، وأصبح به صاحب مدرسة نثرية هو امامها .. من أبرز خصائصها الترسل الذي لا يتقيد بالسجع ، واستعمال التحميدات .. (وهو أن يحمد الله عز وجل مرة بعد مرة ، ويثني عليه بالمحامد الحسنة ، متفننا في ذلك ..) ، وقد قال « المسعودي » في « مروج الذهب » : انه أول من استعملها في فصول الكتب . والميل الى الاطالة ، والاكثار من الجمل القصيرة المتلاحقة مع شغف بتحويل معاني الشعر الى النثر أو ما يسمى بفك الشعر أو حله وذلك بالاضافة الى ما يستقيه من معاني الآيات الكريمة والأحاديث النبوية ومعاني البلغاء والحكماء ممن سبقه .. وقد لخص الأستاذ « محمد كرد علي » رحمه الله أسلوبه في قوله :

« فهو مخترع طريقة ، وكاتب وصّاف على الحقيقة ، استجمع كل شروط البلاغة ، فَعُدّ أمير المنشئين غير مدافع ، واستطاب الناس الى يومنا هذا اسلوبه المعجب المطرب » . ص ٨٢ (أمراء البيان) .

أما اسلوبه في هذه الرسالة ، رسالته الى الكتاب ،

فتميز بأن عبدالحميد لم يستعمل فيها التحميدات ، فهذه كان يخص بها غالبا ما يكتبه على لسان الخليفة •• كما أن عبدالحميد لم (يفك فيها الشعر) أعني لم يدرج بها معاني لأبيات شعرية مألوفة•• فقد كان هنا يبني موضوعه بناء خاصاً •• وينجه به الى منحى معين فريد ! فكان يسلسل أفكاره متتالية يأخذ بعضها ببعض ، مرتبة منسقة ، حتى لذهب بعضهم الى أنه نقل هذه الأفكار من نظائرها في الفارسية ، ولكن هذا الزعم يظل قولا مرسلا يعوزه الدليل ! كما اوضحت ذلك من قبل •

أما جمله القصيرة المتتابعة ، التي هي سمة غالبة على اسلوبه فتظل هنا بارزة ظاهرة ، فانظر اليه وهو يقول : « فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره الى أن يكون ، حليما في موضع الحلم ، فقيها في موضع الحكم ، مقداما في موضع الاقدام، محجماً في موضع الاحجام ، ليناً في موضع اللين •• » الخ •

٣ ـ أما معانيه وأفكاره :

فان « عبد الحميد » يبدأ رسالته ببيان المنزلة الكبيرة التي يتمتع بها الكتاب في المجتمع، فهم يأتون في الطبقة التالية للملوك وذوي السلطان ، فالوزراء ، وهم قمة طبقة

الكتاب ، انما هم في الواقع من الكتاب ، تدرجوا في مناصب الكتابة حتى وصلوا أعلاها ، وقد اجتاز عبد الحميد نفسه هذا الطريق ، حتى تسنم ذروته .

ثم يشرح أهمية العمل الذي يؤديه الكتّاب بالنسبة للسلطة ، فهي لا تستغني عنهم ، وبها ينتظم شأنها ..

من اجل ذلك .. ينبغي أن يجتمع للكتاب من الأخلاق والخلال ، مالم يشترط لغيرهم من الفئات « أحوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة » .

ثم يأخذ في وضع الدستور الذي يجب أن يتبعوه .. فيتحدث عن الحكمة والحلم ، والعفاف ، والتعقل ، والشجاعة ، والعدل ، وصيانة الاسرار ، وبعد النظر ، وهي الخلال الشخصية التي تأتي مع الطبع غالبا ..

ثم يتحدث عن الخلال المكتسبة ، أو ما يجب أن يحرزه الكاتب عن طريق التعلم ، أو ما يسمى بالمؤهل في لغة عصرنا .. فيأخذ في ترتيب العلوم بحسب أهميتها ، على النحو السائد في عصره ..

وليس ثمة شك أن العلوم الدينية تأتي في المقدمة .. وهذا شرط أساسي ، وهو شرط خالد لا ينبغي التخلي عنه في أي عصر فانه لا صلاح لدنيا الناس إلا بدين الله .

اذاً فالبدء ، انما يكون بكتاب الله ، ومعرفة الفرائض .. وقد اهتم بها عبدالحميد لاهميتها في القضايا بصفة عامة والقضايا الميراثية بصفة خاصة .. ثم يتحدث عن العربية ، ويذكر في أهميتها أنها « ثقاف ألسنتكم » ثم الخط ، ورواية الأشعار ، ومعرفة غريبها ومعانيها .. وذلك لصلة الشعر بالثقافة الديوانية .. ولأن الشعر يمدّ الكاتب بثروة لغوية ونحوية ، وبمعلومات تاريخية وأدبية ..

ثم ينص على أهمية أيام العرب والعجم .. أي أهمية دراسة أحداث التاريخ والسير ..

ولا يفوته أن يلفت النظر الى أهمية الحساب خاصة للوظائف الحسابية أو المالية .

ثم يلتفت عبدالحميد بعد ذلك .. الى الحث على الترفع ، والبعد عن مواطن الشبهات .. وكأنه حينما أتى على ذكر الوظائف المالية ، أدرك حساسية وضع العاملين بها ، وانها كثيرا ما يستهدفها الاغراء ، بيد أنه جعل نصيحته عامة .. فان الاغراء ليس وقفا على الوظائف الحسابية وحدها ، وان كان لها أكثر استهدافاً ..

« وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها ، وسفساف الامور ومحاقرها ، فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب .. » .

وليست المطامع وحدها هي آفة الكتاب ، بل هناك مجموعة من الآفات ، لم يفت عبدالحميد أن يحذر منها وأن ينص عليها ..

فالسعاية والنميمة من الكتاب ، قد تؤدي الى التهلكة لقربهم من مصادر السلطة ، ولان الثقة بهم كثيرا ما تكون كبيرة ..

وهناك داء العظمة ، أو « النفخة الكذابة » التي قد يصاب بها بعض أصحاب المراكز الرفيعة .. فلم يغفل عبدالحميد عن النص على خطرها ، وانها تؤدي الى جلب العداوة ، دونما مسبقات من الاحن أو الخطايا .. ان الناس يعتبرون الكبر ذنباً كبيراً في ذاته لأنه عملية استعلاء .

ثم ينتقل « عبدالحميد » الى واجب الكتّاب بعضهم تجاه بعض .. فيوصيهم بالتواد فيما بينهم ، وأن يتواصوا بما يليق بهم من أخلاق ..

فان نبا الزمان بواحد منهم ، فناله فقر أو مرض ، أو غير ذلك من نوائب الدهر ، فان على زملائه أن يعطفوا عليه ويواسوه ، حتى يرجع الى مألوف عادته ..

أما ان قعدت به السّن ، عن المكسب ، ولقاء الأصدقاء ، فان من واجبهم أن يكثّروا وحدته بزيارتهم ،

ويشعروه ببقاء مجده ، عن طريق احترامه وتعظيمه ، وأن يجعلوه يحس بأهميته عن طريق استشارته ، والرجوع الى رأيه ، والاستفادة من خبرته وقديم تجربته .. والفائدة هنا مزدوجة ففي الرجوع الى رأيه اضافة تجربته الى ما عندهم وفيه تأنيس له ..

ولا ينسى « عبدالحميد » ، أن يوصي في تأكيد ، بصاحب الولاء .. أو بمن ينتمي اليه الكاتب .. أو بتعبيره « من اصطنعه واستظهر به لحاجته » ، أو برئيس العمل .

ومن توصياته المؤكدة أنه يطلب الى الكتّاب أن يجعلوا مصلحة العمل ، فوق مصلحة أولادهم وأشقائهم ، وأن يتحملوا مسئولية أعمالهم تحملا كاملا .. وأن يخلصوا فيها ، بحيث ينسون أنفسهم وذواتهم ، فان بدأ في العمل اتقان واجادة ، أو ما يستحق الفخر ، أو حقق نجاحا ظاهرا ، فان على الموظف أن يعزو ذلك لصاحب الولاء .. أما اذا ظهرت أخطاء .. فيكفي أن يتحمل هو تبعة هذه الاخطاء دون رؤسائه « فليحملها من دونه » ..

وعلى ذكر الاخطاء ، فان عبدالحميد يحذِّر منها ، كما يحذر من السأم ، الذي يأكل نفوس الموظفين ويدفع بهم الى نَمَطية رتيبة « روتينية » عقيمة .. ويذكر هنا أن مهنة الكتابة مهنة حساسة جدا بحيث تتأثر بأقل العيوب .

ولا يفتأ يوصي بصاحب العمل ، أو صاحب الولاء ، فيؤكد الوفاء لـه ، وشكر نعمته ، واحتمال تصرفاتـه ، والنصيحة له ، وكتمان سره ، والاجتهاد في تدبير أموره •

ولا يغفل عن التنبيه الى ضرورة التزام توصياته في حالي الرخاء والشدة معا ، وفي السراء والضراء •

ويذكر عبدالحميد ، الكتاب بتقوى الله عز وجل ، ومراقبته في عملهم ، لأن عملهم يتصل بمصالح الجمهور ، فالخلق عيال الله ، وكأنـه يشير الى الحـديث الشريف ، (الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعياله) •

وان من الرفق بالجمهور ، أن يكون الموظف أشـد حدبا وعطفا على الضعيف ، الذي لا يملك حولا ولا قوة •• وقد لا يعرف شيئا عن الدوائر الرسمية ، ولا سـير المعاملات ، ولا مداخلها ومخارجها ، فقـد يكون جديدا عليها كل الجدة •

والمظلوم بلا شك أحق الناس بالرفق ، وأجدرهـم بالعطف ، فينبغي للموظف أن يأخذ بيده ، ويعمل عـلى نصرته ، وانصافه ممن ظلمه •• على أن يلتـزم في ذلك العدل •• فلا يتجاوزه ••

والرجل الشريف ، صاحب المكانة اذا وقف عـلى

مكتب الموظف •• جدير بلا شك بالاكرام والحفاوة ••
فان ذلك يملأ نفسه رضا ، وبالتالي سيجعله يحمل عن
الموظف وعن رؤسائه أحسن الانطباعات ومن هذا الباب
(تألف الرعية) •• حيث يستطيع الموظف اللبق ، أن
يعطي لكل حالة مقتضاها •• ومن ذلك أن لا يصل الى
الرعية أذى عن طريقه ، مهما يكن نوع ذلك الأذى ••

ولا يجدر أن ينسى عبدالحميد ، شيئا هاما جدا
يوصي به الموظف ، هو الحرص على أموال الدولة فيوفر
ويقتصد ما وسعه الى ذلك سبيل ، ويعمل على أن لا يصل
الى أموال الدولة شيء من التبذير •• أو الاسراف ••
على أن هذا لا يحول دون الصرف الحكيم في سبيل
اعمار البلاد ، أو ما نسميه بانعاش الحركة العمرانية ••
أي انه يجب أن يضع المال في موضعه ••

ويعود عبدالحميد الى هيأة الموظف •• فيوصي أن
يكون متواضعا في مجلسه •• فان التواضع يعين أصحاب
الحاجات على مراجعته في حاجاتهم •• أما اذا اتخذ مجلسا
فخما ، أو مكتبا فخما في لغة العصر ، وأحاط نفسه
بالحجاب والخدم •• فان ذلك لا يشجع أصحاب الحاجة
من جمهور الناس على مراجعته ، في حاجاتهم أو شكاويهم •

والحلم وسعة الصدر ، يشجعان أيضاً على اقبال المراجعين على الموظف ، لشرح أحوالهم وسير معاملاتهم .. أو ما ينالها من تأخير أو مماطلة ، أو ما يصطدم به بعضهم ، من عنجهية بعض الموظفين أو شراستهم ..

أما الموظفون ، الذين تقتضي أعمالهم جباية الاموال ، واقتضاء حقوق الدولة .. فان من واجب هؤلاء أن يُعنوا بالرفق واللطف للحصول على الأموال المطلوبة ..

ثم ..

ما هي السياسة التي يتبعها الكتّاب ازاء رؤسائهم ؟

لكي يستطيع أي موظف أن يرسم هذه السياسة ، عليه قبل كل شيء .. أن يختبر أخلاق صاحبه .. ليعرف أي نوع من الرجال هو .. ؟

فليتعرف قبل كل شيء .. على أخلاق صاحبه ، وما يألف من عادات ، وليدرس كل ذلك في استيعاب ..

لماذا يفعل ذلك ؟

أليجامله .. أو لينافق له ؟

لا .. ولكن ليدرك أخلاقه الحسنة فيعينه على كل خلق حسن ، ويحقق كل مقاصده النبيلة ..

أما مواطن الضعف فيه .. أو عاداته السيئة ، فليعمل

على صرفه عنها ، وليقبّحها في نظره ، على أن يتم ذلك ، (بألطف حيلة ، وأجمل وسيلة) ، حسبما يعبر عبدالحميد الكاتب ، ويضرب مثلا بسائس الحصان .. فان عليـــه أن يعرف عادة حصانه ، فيسايسه بحسبها . وهــو لا يضنّ في سبيل شرح ذلك بالفقرات الطويلة من رسالته ، ادراكا منه لأهمية هذه النقطة .. وأثرها فيعلاقة الموظف برئيسه ، وبعلاقتهما معا على سير العمل ..

اذاً فلا بد من استعمال الحكمة والروية ، والصبر ، لضمان تحقيق مصلحة العمل من جهة ، ولتحقيق الألفة بين الرئيس والمرءوس .. من جهة أخرى .

ومن أدب الوظيفة عند عبد الحميد ، ان لا يتجاوز المــوظف درجته الاجتماعية ، فيتخذ في هيئته ، وداره ، وفرشه ، ومركبه ، وطريقة حياته ، ما يتجاوز به حدوده .. ويصل به الى مضاهاة رؤسائه .. الأمر الذي يسبب ارهاقاً ماليا له ويترك آثاراً غير حسنة عند الآخر .. وقد يفسر تفسيراً ســيئاً .. ويفسح المجال لتساؤلات كثيرة منهــا السؤال المعهود : من أين لك هذا ..؟

ويرى عبد الحميد ، ان الموظف ، مع شرف صنعته ، انمــا هو مجرد خادم .. ونحن نشعر في هذا العصر ، ان

الموظف ، مهما سمت منزلته ، انما هو خادم للشعب ، لا يقبل منه التقصير ولا الاهمال ..

أما أولئك الذين تحت أيديهم أموال الناس فهم أيضا مجرد حفظة لهذا المال ، لايقبل منهم التضييع ولا التبذير ..

ولكي يستطيع أن يوازن الكاتب بين راتبه ، وبين نفقاته ، ينبغي له أن يلزم الاقتصاد ، ليتجنب أن يمد يده الى المال الحرام من اختلاس أو رشوة ، أو غرق في الدين ، فان الاقتصاد يقيه كل ذلك ، ويحفظه من قالة السوء (واستعينوا على عفافكم بالقصد واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف .. فانهما يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلهما ولا سيما الكتاب) .

وينص عبد الحميد على الاستفادة من التجارب ، والخبرات السابقة ، ويوصي ، على أن يقيس الموظف ما يعن له من معضلات في عمله على مامر من تجاربه ، فان المعاملات تتشابه (ويدل بعضها على بعض فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم) .

على أن التجربة وحدها ، ليست كافية في نظر عبد الحميد الكاتب ، فلا بد من التأمل ، وإمعان الفكر ، لاتخاذ الطريقة المثلى ، واختيار أحسن الحلول ، وأحمدها

عاقبة •• وهو يعبِّر عن ذلك بقوله : « واسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجّة ، وأصدقها حجّة ، وأحمدها عاقبة • » •

ولكن للتفكير آفة ، وآفته أن لا يجد الموظف الوقت الكافي للتفكير ، حينما يبدد وقت « الدوام » في الاستقبالات ، والمجاملات ، والتمادي في الجدل ••

ان عبد الحميد لا تفوته الاشارة الى ذلك ، والى ان يصف العلاج ، وهو ان يقتصر الموظف في وقت دوامه على الضروري من المقابلات ، ومن الكلام ، وأن يوجز في نطقه وإجاباته ، وأن يركِّز حجته لئلا يشغله الاكثار في كل ذلك عن مصلحة عمله •

وهناك أمر من الأهمية في المكان الأول ، ينبِّه إليه عبد الحميد ، هو أن يلتمس الموظف التوفيق من الله عز وجل أولا وآخرا فهو الذي يعصم من الخطأ ، ويهدي الحائرين الى سواء السبيل !

ان التوفيق انما يستمد من الله عز وجل •• فان استولى الغرور على موظف ما ، فظن أن ما حقق من نجاح ، انما هو بفضل تدبيره ، ورجاحة عقله وذكائه ، وحسن

تصرفه ، فقد دخل الغرور الى نفسه •• والغرور عنصر هدام ، يقوض الأمجاد ، فان الله يكل المغرور الى نفسه ، ليرى عاقبة إعجابه ، حتى يؤول أمره الى أسوأ النتائج ••

ويعالج أمر المنافسة بين الزملاء ، وماقد يخامر بعضهم بأنه أجود في عمله من صحبه ، وانه أكثر مداومة ومواظبة ، أو انه أكثر خبرة ، أو أكثر تحملا للمسئولية •

ان هذا في نظر عبد الحميد لا يليق : (ولا يقل أحد منكم أنه أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ، ومصاحبه في خدمته ، فان أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ، ورأى ان أصحابه أعقل منه وأجمل في طريقته •)

وغني عن البيان ان المنافسة التي يعنيها عبد الحميد هنا ، انما هي المنافسة غير الشريفة •• لا السباق الى الاتقان ، والمواظبة •• مما يترك أمر تقديره الى الرؤساء والمسئولين ، لا أن يمتدح به الموظف نفسه بين زملائه ، معجبا أو مكاثرا •• ولى ذلك يشير بقوله : (ان أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ،

ورأى أن صاحبه أعقل منه وأجمل في طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعمة الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره .) .

ثم يختم عبد الحميد رسالته بأن خلاصة رسالته هو أن النصيحة تلزم بالعمل .. ان الناصح نفسه ينبغي أن يكون قدوة للمنصوح ، وان المنصوح لا ينبغي له أن يتلقى النصيحة ، لمجرد العلم أو الاحاطة كما يقال في لغة الموظفين ؛ بل لا بد من الالتزام بالعمل بها .. ان النظام انما يسن للعمل به ، وقد وضع عبد الحميد نظاماً لا يريده أن يذهب هباء ، بل لابد من وضعه موضع التنفيذ ليؤدي الغاية منه !.

الرسالة في مواد

كأني بعبد الحميد الكاتب ، وقد أراد أن يضع نهجاً باقياً للكتاب ، يتبعونه على مختلف العصور ..

وتيسيراً لتناول هذا المنهج الذي رسمه ، فقد قمت بإعداده في مواد .. على ماهو متبع اليوم في صياغة الأنظمة .

القسم الاول

الصفات التي ينبغي أن تتوافر في الكاتب

١ ــ أن يكون حليماً في موضع الحلم •
٢ ــ فقيها في موضع الحكم •
٣ ــ مقداماً في موضع الاقدام •
٤ ــ محجماً في موضع الاحجام : (أي ينبغي أن لا يكون متهوراً) •
٥ ــ ليناً في موضع اللين •
٦ ــ شديداً في موضع الشدة : (أي حازماً صارماً اذا اقتضى الأمر حزماً وصرامة) •
٧ ــ مؤثراً للعفاف : (أي يقهر هواه ويؤثر جانب التعفف) •
٨ ــ والعدل والانصاف (ملتزماً للعدل) •
٩ ــ كتوماً للأسرار •
١٠ــ وفياً عند الشدائد : (أي ان المفروض فيه أن يكون وفياً على مدى الايام ، ولكن وفاءه عند الشدائد يكون أكثر تأكيداً) •
١١ــ عالماً بما يأتي ويذر (أي متأكداً من سلامة اجراءاته) •

١٢ـ يضع الأمور في مواضعها (أي يتخذ لكل حالة ما ينبغي لها من اجراءات) •

١٣ـ قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه فان لم يحكمه شدا منه شدواً يكتفي به (أي ان يكون عالماً فان لم يتيسر ذلك فليكن مثقفاً) •

١٤ـ يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته ، ويهيء لكل أمر أهبته (مستفيداً من خبراته وتجاربه السابقة في الحياة) •

القسم الثاني

ثقافة الكتاب

١٥ـ نافسوا في صنوف العلم والأدب •

١٦ـ تفقهوا في الدين •

١٧ـ ابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل •

١٨ـ والفرائض (الفقه والمواريث) •

١٩ـ والعربية (أي علوم اللغة العربية ، من نحو وصرف وبلاغة ••)

٢٠ــ أجيدوا الخط •

٢١ــ أرووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها (الأدب) •

٢٢ــ •• وأيام العرب والعجم (التاريخ) •

٢٣ــ لا يضعفن نظركم في الحساب • (أي اتقنوا الرياضيات •)

القسم الثالث

ما ينبغي أن يكون عليه الكتاب

٢٤ــ ارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيّها •

٢٥ــ وسفاسف الأمور ومحاقرها (أي مايحطُّ من شأنكم ويسيء الى سمعتكم) •

٢٦ــ نزّهوا صناعتكم •

٢٧ــ اربأوا بأنفسكم عن السعاية •

٢٨ــ والنميمة •

٢٩ــ وما فيه أهل الدناءة والجهالة •

٣٠ــ ايّاكم والكبر والعظمة •

القسم الرابع

واجب الكتاب حيال زملائهم ورؤسائهم

٣١ــ تحابّوا في الله عز وجل في صناعتكم .

٣٢ــ تواصوا عليها .

٣٣ــ وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى ترجع إليه حاله : (مواساة الزميل) .

٣٤ــ وان أقعد الكبَر أحدكم عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه (رعاية المسنين) ، .

٣٥ــ وشاوروه ، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته ، وقديم معرفته (الاستفادة من تجارب الآخرين) .

٣٦ــ ليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته أحدب وأحوط منه على أخيه وولده (الاخلاص في العمل ، وطاعة الرئيس ، والوفاء له لمصلحة العمل)

٣٧ــ وان عرضت في العمل محمدة فليضفها الى صاحبه ، (الاخلاص وارجاع فضل اتقانه الىالادارة أوالمصلحة التي ينتمي إليها) .

٣٨ــ وان عرضت مذمة فليحملها من دونه (تحمل التبعة بالنسبة لنفسه ولغيره ، تقديراً لوحدة العمل) .

القسم الخامس

تعليمات عامة للكتاب

٣٩ـ ليحذر السقطة : (الأخطاء الكبيرة) •
٤٠ـ والزلة : (حتى الأخطاء الصغيرة العارضة) •
٤١ـ والملال عند تغير الحال (ليحذر السأم والملل وليكن دأبه توخي مصلحة العمل في الرخاء والشدة والغضب والرضا) •
٤٢ـ ليراقب الله تعالى ذكره •
٤٣ـ ليؤثر طاعته : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) •
٤٤ـ ليكن بالضعيف رفيقاً •
٤٥ـ للمظلوم منصفاً •
٤٦ـ ليكن بالحق حاكماً •
٤٧ـ للأشراف مكرماً ومداريا •
٤٨ـ للفيء موفراً (ليصن أموال الدولة) •
٤٩ـ للبلاد عامراً (عاملاً على انعاش الحركة العمرانية) •
٥٠ـ للرعية متألفاً : (أي محتفظاً بالعلاقات الطيبة مع الجمهور) •

٥١ـ ليكن في مجلسه متواضعاً : (بعيداً عن التكلف في مجلسه ومكتبه) •
٥٢ـ حليمـاً •
٥٣ـ ليّنـاً •
٥٤ـ رفيقاً (عند استخراج حقوق الدولة) •

القسم السادس

معاملة الرؤساء

٥٥ـ اذا صحب أحـدكم الرجـل (الرئيس) فليستشف خلائقـه •
٥٦ـ اذا عرف حَسَنَها وقبيحها ، اعانه على مايوافقه من الحسن : (يعينه على الخير) •
٥٧ـ واحتال لصرفه عما يهواه مـن القبح بألطف حيلة ، وأحسن مـداراة ورفق (صرفه عن الشـر بحسن السياسة) •
٥٨ـ أدقوا النظر • (حققوا في دراسة نفسية رؤسائكم) •
٥٩ـ وأعملـوا الـروية والفكر : (في الطريقـة التـي تعاملونه بها) •

القسم السابع

توصيات مسلكية ومعاشية

٦٠ـ لا يجوزن الرجل منكم في هيئته ، ومجلسه ، وملبسه، ومركبه ، ومطعمه ، ومشربه ، وبنائه ، وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره ، قدر صناعته (الزموا الاعتدال)

٦١ـ انكم خزان وحفظة لا يحتمل منكم التضييع والتبذير (احذروا الاستهانة بأموال الدولة) .

٦٢ـ استعينوا على عفافكم بالقصد (الاقتصاد) .

٦٣ـ نعم العون عونكم على صيانة دينكم (احرصوا على تقوى الله ، والخوف من عقوبته) .

٦٤ـ وحفظ أماتنكم . (احرصوا على الأمانة في عملكم وصيانة أسراره وأمواله) .

٦٥ـ احذروا متالف السرف . (احذروا الاسراف) .

٦٦ـ وسوء عاقبة الترف (مرة أخرى قاوموا الترف) .

٦٧ـ والأمور أشباه ، وبعضها دليل على بعض فاستدلوا في مؤتنف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم . (استفيدوا من خبراتكم السابقة) .

٦٨ــ اسلكوا من مسالك التــدبير أوضحها محجــة ٠
(تخــيروا أحسن الطرق وأسهلها لأداء أعمالكم ،
أي قاوموا الروتين) ٠

٦٩ــ فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره ٠ (أي فليعمل
جاهداً على أن يكون وقت دوامــه مخصصاً لعمله ،
خالصاً له) ٠

٧٠ــ ويقصد في كلامــه ٠ (لا داعي للثرثرة أثنــاء أداء
العمل ، لأنها مضيعة للوقت ٠)

٧١ــ وليأخذ بمجامع حججه (لتكن تعليماته موجزة ، قاطعة
واضحة) ٠

٧٢ــ ليضرع الى الله في صلة توفيقه (ليكن اعتماده دائماً
على الله) ٠

٧٣ــ فان ظنّ منكم ظان ، أو قال قائل ، إن الذي يحذر من
جميل صنعته ، وقوة حركته انما هــو بفضل حيلته
وأصالة رأيه ، وحسن تدبيره ، كان متعرضاً لأن يكله
الله الى نفسه ٠ (اياكم والغرور والغفلة عن استشعار
فضل الله) ٠

٧٤ــ ولا يقل أحد منكم انه آدب وأعقل ، وأحمد لعبء

التدبير والعمل من أخيه في صناعته، فان أعقل الرجلين عنـد ذوي الألباب القائل إن صاحبه أعقل منـه ، وأحمقهما الذي يرى أنه أعقل من صاحبه • (اياكم وعجب الشخص بعمله ، وازدراء أعمال زميله) •

٧٥ـ من تلزمه النصيحة يلزمه العمل • (أي لا بد مـن تطبيق الوصايا والمبادىء والعمل بها) •

وعبد الحميد في هـذه الفقرة يسلك مسلكاً لطيفـاً فيبين بأنه يوصي نفسه أولاً ويعمل بهذه النصائح ، وفى هذا ما فيه من جذب القلوب إليه والى نصائحه الكثيرة ، وهو يوحى الى كبار الموظفين بأن يكونوا قدوة لمن يليهم ، اذا أرادوا توجيه شيء من هذه الوصايا أوغيرها لمن دونهم ، فالناصح أولى بأن يكـون مبتدئاً بنفسه عاملا بما يوصي غيره أن يعمله •

المصادر والمراجع

١ ـ الأصول الأدبية في صبح الأعشى : د. مصطفى الشكعة من منشورات جامعة بيروت العربية بيروت ـ دار الأحد ١٩٧١م

٢ ـ الأعلام : خير الدين الزركلي ج/٤ الطبعة الثانية

٣ ـ أمراء البيان محمد كرد علي طبع دار الأمانة ـ بيروت ط ٣ ـ ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م

٤ ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون اسماعيل باشا البغدادي طبع طهران سنة ١٣٧٨هـ

٥ ـ البداية والنهاية ابن كثير ج ١٠ / ط مطبعة السعادة القاهرة

٦ ـ البيان والتبيين : الجاحظ ط ٣ مطبعة دار التأليف بالقاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م

٧ ـ تاريخ آداب اللغةالعربية جرجي زيدان بيروت ـ دار مكتبة الحياة

٨ ـ تاريخ الأدب العربي السباعي بيومي ج ٢ ط ٢ / ١٩٥٨م مطبعة الرسالة

٩ ـ تاريخ الأدب العربي « العصر العباسي » د ـ شوقي ضيف طبع دار المعارف ١٩٦٣م .

١٠ـ تاريخ الأدب العربي د ـ عمر فروخ ج ١ ط ١ بيروت، دارالعلم للملايين ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م

١١ـ تاريخ الأدب العربي — كارل بروكلمان
ج ١ طبع دار المعارف ط ١

١٢ـ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي — أنيس المقدسي
طبع دار العلم للملايين بيروت ط ١ / ١٩٦٠م

١٣ـ جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة — أحمد زكي صفوت
ج ٢ / ط ١ / ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م

١٤ـ دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية . ط ١

١٥ـ ديوان المعاني : — أبو هلال العسكري المتوفي ١٣٩٥ هـ نشر مكتبة القدسي
طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٢هـ

١٦ـ رسائل البلغاء — محمد كرد علي
طبع دار الأمانة ببيروت ط ٣ ـ ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩م

١٧ـ الرسايل والكتابة — عبد الحميد الكاتب
المطبعة الرسمية التونسية ١٣١٨ هـ

١٨ـ سرح العيون — جمال الدين بن نباته المصري المتوفى ٧٦٨ هـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم
مطبعة المدني ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م

١٩ـ شرح مقامات الحريري — للشريشي
ج ٣ طبع سنة ١٣٧٢ هـ ١٩٥٢ القاهرة

٢٠ـ الشعر والشعراء — ابن قتيبة الدينوري المتوفى ٢٧٦هـ ج ٢ طبع دارالمعارف بمصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م

٢١- عيون الأخبار ابن قتيبة الدينوري

٢٢- الفن ومذاهبه في النثر العربي د - شوقي ضيف مطبعة الأندلس ط ٢ / ١٩٥٦ م

٢٣- الفهرست ابن النديم طبعة مصطفى محمد

٢٤- كتاب الصناعتين أبو هلال العسكري ط ١ - دار احياء الكتب العربية ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م

٢٥- معجم البلدان ياقوت الحموي طبع دار صادر ودار بيروت ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م

٢٦- مروج الذهب : علي بن حسين المسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ طبع دار الأندلس - بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م

٢٧- معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م

٢٨- معجم المطبوعات العربية والمصرية يوسف اليان سركيس مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م

٢٩- مقدمة ابن خلدون طبعة مصطفى محمد القاهرة

٣٠- النثر الفني في القرن الرابع د - زكي مبارك الطبعة الثانية مطبعة السعادة بالقاهرة

٣١ـ الوزراء والكتاب

محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى ٣٣١ هـ الطبعة الأولى القاهرة مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م

٣٢ـ وفيات الأعيان

ابن خلكان المتوفى ٦٨١ هـ ج ٢ / نشر مكتبة النهضة المصرية

الفهرست

صـــفحة

من عبد الحميد الكاتب ..

... رسالة الكاتب المبـدع « عبد الحميد الـكاتب »

الى الكتاب ، تحفة أدبيـة لغوية ، عز وجود مثلهـا ، وهي مما كتبه الرعيل الأول ، الذي نتلهف الى الاطلاع على تراثه العـزيز ، والتثقف بثقافتـه الأصلية .. وهـذه الرسالة من أقدم ما كتب مما وصل إلينـا ، وسيرى فيها القارىء ملامح عن أسلوب الكتابة في ذلك العصر ، ونوع العلاقة مابين الرئيس والمرءوس من المشتغلين بالدولة ، الذين نعبر عنهم الآن بالموظفين ..

جاءت رسالته أصيلة في لغتها ، بارعة في أسلوبها مليئة بالمعاني الجليلة ، والحكم البليغة ، ونتائج تجارب طويلة ..

ناصر بن حمد الراشد
الرئيس العام لتعليم البنات